د. نبيل فاروق

حروب

تاريخ الحروب على مر العصور

الجزء الثاني

فريق متميزون
E-BOOK

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة: هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات: فريق (متميزون) انضم الى الجروب

انضم الى القناة

حروب

تاريخ الحروب على مرّ العصور

(الجزء الثاني)

د. نبيل فاروق

عن الكتاب..

لكل إنسانٍ في هذا العالم نقطة ضعف جوهرية مهما بلغَ حجمُ قوَّتِه..

وفي هذا الكتاب حروب الجزء الثاني.. نستكمل التعرف على أساليب الحروب من جيل لآخر ابتداء من الحرب المباشرة بالسلاح مرورًا بحرب العصابات وفرض السطوة ثم حرب المناورات المفاجئة كالاحتلال.. وأخيرًا الحرب القائمة على الإعلام باختلاف وسائله.

ترى ما هي أنواع أسلحة الحروب وتطورها مع الوقت؟ وما هي الاستراتيجيات التي تساعد رجال المخابرات في بلوغ أهدافهم كأحد أهم عوامل النجاح في أي حرب؟

سنتعرف معًا على مسار الحروب بكل التغيرات التي تطرأ عليها باعتبارها نتاجًا دائمًا لطبيعة الحياة التي نعيشها، وجزءًا أساسيًّا وفاصلًا في تمزيق صفحات الماضي ابتغاء في حاضرٍ آمنٍ، ومستقبلٍ أكثر أمانًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إهداء..

في منتصف عام 1984م التقينا...

كنت أخطو خطوتي الأولى في عالم (روايات مصرية للجيب) عندما تعارفنا وتحاورنا وتقاربنا..

والتقينا..

التقينا فكريًّا وعقليًّا ووجد كل منَّا سبيلَه إلى وجدان الآخر في حواراتنا ومحاوراتنا ولقاءاتنا..

وحتى اتصالاتنا..

قليلًا ما كنا نلتقي وجهًا لوجه في الآونة الأخيرة قبل رحيلك، إلا أن هذا لم يوقف محاوراتنا العقلية والثقافية أبدًا...

فعبْرَ أسلاك الهاتف كنا نلتقي ونتحدَّث بالساعات، متناولين مختلف جوانب الفكر والثقافة والحياة، وحتى المشكلات العامة والشخصية..

فمع ثقافتك الواسعة وتواضُعك الجم وروحك الحلوة الصافية، كنت أشعر دومًا بالهدوء والراحة والثقة، وبغياب أي حواجز أو موانع لإفراغ مكنونات القلب، ولواذعه وأفراحه وأتراحه وسعاداته وعذاباته..

وكان عقلي ينطلق مع فكرك الحُر بلا قيود أو عقبات أو محاذير..

وعبر أكثر من عشرين عامًا كنت أشعر أن كتاباتي في أيدٍ أمينة معك..

مع فِكرك.. وعقليتك.. وفنِّك..

وريشتك..

ذِكراك أيقظتني ودفعتني لأخط لك رسالتي لك في ذكراك..

فوداعًا يا صاحب الفن والجمال والرؤية والتذوق والحِس والإبداع..

وداعًا يا رفيق الكفاح..

وداعًا إسماعيل دياب.

نبيل فاروق

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

(١)
الحرب الرقمية

في اللحظة التي وردَ فيها مصطلح (حروب الجيل الرابع) على لسان البروفيسير "ماكس مايورواينك" في معهد الدراسات الاستراتيجية الإسرائيلي عام ٢٠٠٤م، تغيَّر مسار الحروب في كل أنحاء العالم، وانقلب رأسًا على عقب.. فمنذ ظهرت القبائل والمجتمعات الصغيرة في زمن الإنسان البدائي الأوَّل، كانت الحروب تدور كلها في صورة تصادمية.. فرسان ضد فرسان أو جيوش ضد جيوش، وأسلحة تواجه أسلحة، سواء أكانت تلك الأسلحة هراوات أو سيوفًا أو بنادق ومدافع أو حتى دبَّابات وطائرات.. ثم كشف "مايورواينك" عبث هذا والخسارة الكبيرة في حال الحروب التصادمية، وربط هذا بالحرب العالمية الثانية التي راحَ ضحيتها خمسون مليونًا من العسكريين والمدنيين وتدمَّر بسببها نصفُ أوروبا، وزالت في نهايتها مدينتان من الوجود؛ "هيروشيما، وناجازاكي".. ولقد تحدَّث "مايورواينك" عن حروب من نوعٍ جديدٍ، لا تتصادم فيها الجيوش أو تتواجه، وإنما يبث خلالها طرفٌ ما سمومَه في كيان الطرف الآخر ليشيع في كيانه الفوضى، ويملأ نفسه بالإحباط والغضب، ويثير انفعالاته ومشاعره، بحيث يقوم وحده على هدم كيانه بيديه متصوِّرًا أنه يحميه.. تمامًا كالدب الذي قتل صاحبه؛ ليبعد عن رأسه ذبابة، أو كالأمراض المناعية التي تفقد خلالها الخلايا وعيَها وإرادتها، فتبدأ في مهاجمة بعضها البعض داخل الجسد الواحد حتى يفنى الجسد وتفنى معه وهي تتصوَّر طوال الوقت أنها إنما تحمي وجوده.. البروفيسير "مايورواينك" وضع عدة نقاط لشن حروب الجيل الرابع؛ كالإرهاب، والضغوط السياسية والعسكرية والاقتصادية، وبث الفوضى وروح التمرُّد.. ولأن هذا العصر يختلف عن كل ما سبقه من حيث ثورة الاتصالات والثورة الرقمية، فقد كانت أهم أسلحة حروب الجيل الرابع هي السلاح الرقمي عن طريق أجهزة الكمبيوتر ووسائل التواصل الاجتماعي.. والواقع أن حروبَ التكنولوجيا قد بدأت فعليًّا قبل هذا بعدة سنوات، ومنذ ظهر مصطلح "الحرب الإليكترونية" التي يقول تعريفها العلمي: "إنها مجموعة من الإجراءات الإليكترونية التي تتضمن استخدام بعض النظم والوسائل التكنولوجية لرصد اتصالات العدو أو منعه من رصد اتصالاتنا.. وجذور الحرب الإليكترونية تعود إلى ما قبل الحرب العالمية الأولى (٢٨ يوليو ١٩١٤ – ١١ نوفمبر ١٩١٨م) وبالتحديد منذ بدأ استخدام الوسائل السلكية في الاتصال عن طريق التلغراف بإشارات مورس عام ١٨٣٧م، ولذلك كانت خطوط التلغراف هدفًا مهمًّا للجيوش؛ لقطع اتصالات العدو بخطوطه الأمامية أو حتى لمنع جواسيس العدو من رصد اتصالاتنا بقواتنا، وفي حالات الحروب كان كل طرف يعمد إلى قطع خطوط التلغراف واستبداله بالرسائل

المكتوبة.. ثم كانت بداية استخدام الاتصالات اللاسلكية عن طريق الألماني هرتز (Hertz) عام ١٨٨٨م، ثم أتى ماركوني (Guglielmo Marconi) المهندس والمخترع الإيطالي في منتصف عام ١٨٧٠م ليطوّر الاتصال اللاسلكي، بحيث يمكن بوساطته الاتصال بالقطع البحرية وهذا ما تمَّ عام ١٩٠١م.. ومع انتشار اللاسلكي بدأت عمليات الشوشرة غير المتعمدة أو المقصودة مع تزايُد استخداماته وتداخُل موجاته الكهرومغنطيسية، ولكن في عام ١٩٠٤م قصفت السفينتان اليابانيتان الحربيتان (كاسوجا) و(ينشين) القاعدةَ البحرية الروسية في ميناء أرثر، وكانت معهما سفينة صغيرة تصحح لهما مسار النيران، وبالمصادفة التقط أحدُ عُمَّال الإشارة الروس اتصالَ السفينة الصغيرة، وأدرك الدور الذي تلعبه؛ فما كان منه إلا أن ضبط جهازه اللاسلكي على الموجة نفسها وتداخَل معها، مما أعاق اتصالاتها بالسفينتين الحربيتين.. ومنذ ذلك الحين بدأ استخدام الشوشرة اللاسلكية كسلاح في الحروب.. بعدها تطوَّرت الأمور إلى عصر الترانزستور، وأجهزة الرادار، وأجهزة التصويب.. حتى جاء العصر الرقمي.. والعصر الرقمي هو ذلك الزمن الذي تحوَّلت فيه البيانات والمعلومات إلى منظومة مرتبة من الرقمين "صفر وواحد"، بحيث أصبح كل شيء، وكل معنى وحتى كل لون أو نغمة، مجرَّد رمز بالنسبة لأجهزة الكمبيوتر التي كانت في بدايتها أجهزة كبيرة عملاقة تحتاج إلى صالات واسعة، وتستخدم شرائط تسجيل عادية لتسجيل أي معلومة واسترجاعها ثم سرعان ما قفزت قفزة عملاقة مع مزجها بتكنولوجيا الليزر فصارت تلك الصالة الواسعة مجرَّد أسطوانة مدمجة وجهاز الكمبيوتر المعقــَّد العملاق مجرد آلة صغيرة في حجم تلفاز عادي يمكن أن يتعامل معها أي طفل.. وبسرعة مدهشة وخلال العقدين الأخيرين من القرن العشرين، قفزت التكنولوجيا الرقمية قفزاتٍ واسعةً؛ بحيث صارت متوافرة لكلّ مَن يحمل هاتفًا جوالًا أيًّا كانت سنوات عمره أو كانت خبراته أو عقليته.. وكان من الطبيعي والحال هكذا، أن تندمج الشبكة العنكبوتية التي نشأت في الأساس كوسيلة اتصال عسكرية مع أجهزة الكمبيوتر والهواتف لتظهر إلى الوجود برمجيات تواصل عالمية وهي التي نطلق عليها اليوم وسائل التواصل الاجتماعي.. وهنا اتسعت ابتسامة زبانية حروب الجيل الرابع، وأدركوا أنهم قد وضعوا أياديهم على أهم وأخطر أسلحة حروبهم الجديدة.. فعَبْرَ وسائل التواصل الاجتماعي يمكن ربط الملايين معًا وتوجيه أي شيء تشاء إليهم، بحيث يتحولون دون إدراكٍ منهم إلى قطيع شارد يقوده كلُّ مَن ينجح في جذبه إليه أيًّا كانت الوسيلة.. ولأنها حرب جديدة وغير تقليدية، ولا يرصد الناس فيها دبَّابات تتصادم أو طائرات تتقاتل أو حتى جنود مشاة يتبادلون إطلاق النيران فمعظم الناس لا يمكنهم تصوُّر أنها حرب، وأن القتال الذي يدور فيها أخطر وأشرس وأعنف من كل حرب عرفها التاريخ.. فهي حرب تلعب وُتقاتِل أصعب ما في الإنسان.. عقله.. ولأن معظم الناس يثقون في

حواسهم بأكثر مما يثقون في عقولهم، ولأن التكنولوجيا الرقمية أيضًا يمكنها اصطناع وتزييف وتغيير كل الحقائق حتى الصوت والصورة، فإنهم يجعلونك تسمع وترى فينخدع عقلك وتتصوَّر أن ما أمامك حقيقة ما دمت تسمعه وتراه دون أن تتصوَّر أنه مجرَّد تركيبة رقمية، فما تسمعه ليس ما كان يُقَال، وما تراه ليس فعليًّا كما تراه، وقد جاء هذا في أحد الأفلام الأمريكية التي ظهرت في بداية الألفية الثالثة حول حربٍ وهمية زيَّفَتها المخابرات الأمريكية بالصوت والصورة لتشغل الشعب عن حقيقة مريعة تحدث.. والواقع أن وسائل التواصل الاجتماعي هي سلاح بالغ الحساسية والخطورة، فالناس ارتبطت بها على نحوٍ أشبه بالإدمان وأصبحت تستقي كلَّ معلوماتها تقريبًا عبرها دون أن تسأل نفسها عن الجهة التي تصدر المعلومة ولأي غرض!! .. وسرُّ جاذبية وسائل التواصل الاجتماعي هو أنها تفاعلية، فمعها أنت ًلا تتقبل فحسب، ولكنك تستطيع أن تشارك وأن ترسل أيضًا.. وعيب معظم الناس أنهم يسعون للتميز دون تحديد مجال هذا التميز بالضبط، ولهذا فما إن تصلهم معلومة يتصوَّرون أنها صحيحة حتى يسارعون بنقلها إلى الآخرين دون محاولة التيقن من صحتها أو عبثها، أو الغرض الحقيقي منها ووفقًا للمعادلة الهندسية المتوالية فيكفي أن ترسل خبرًا ما إلى خمسة أشخاص حتى يصل إلى ما يقرب من المليون شخص في أقل من أربع وعشرين ساعة فحسب، وبالتالي صار انتشار ونشر الشائعات أمرًا يسيرًا وصار الإحساس بالمسؤولية الرقمية منالًا بعيدًا، وخاصة في غيبة القوانين المنظمة للعالم الرقمي الذي صار يعاني من فوضى عارمة، نظرًا لأن الكل يدلي فيه بدلوه سواء أكان دلوه هذا يحوي ماءً مُقطرًا أم أوساخًا نتنة.. والسؤال دومًا هو: كيف يمكن مواجهة تلك الحرب الرقمية الشرسة في فضاء سيبراني بلا حدود؟! .. الجواب هو أن هذا أمر عسير لأقصى حدٍّ، ويحتاج إلى متابعة شبه مستحيلة ورقابة أكثر استحالة.. هذا لو نظرنا إلى الأمر من منظور أمني بحت، أما على الجانب الآخر، فالحرب الرقمية تزدهر في غياب الحقائق المعلَنة وتذوي في حضورها، وهي ليست قاعدة يمكن الاعتماد عليها، فكل الوثائق غير البالغة السرية متاحة في بلدان مثل أمريكا وأوروبا، وعلى الرغم من هذا فالحرب الرقمية تدق طبولها طوال الوقت عبر الشبكة العنكبوتية، وتزداد شراسة مع نمو وتطوُّر التكنولوجيا، وأكثر من نصف الشعب الأمريكي يؤمن تمامًا بأنه محاط بمؤامرات وتآمرات حكومية لحجب أخطر المعلومات والحقائق عنه، مثل حقيقة الأطباق الطائرة وكائنات روزويل والمنطقة ٥١ وغيرها.. ولقد شهدت العقود الأخيرة عددًا من الهجمات الرقمية الكبرى، حتى إن البعض يعتقد أننا على مشارف الحرب العالمية الرقمية الأولى، ومعظم الدول الكبرى تستعد لهذا بالفعل؛ فالصين تحصِّن نفسها بجدار ناري؛ لمنع اختراق أجهزة الكمبيوتر لديها، وروسيا تسعى لامتلاك شبكة إنترنت مستقلة حتى لا ترتبط بالشبكة العالمية، وأمريكا تختبر قدراتها على التصدّي للهجمات

الرقمية طوال الوقت.. والكل بلا استثناء يؤمن بأن الحرب الرقمية هي الإرهاب الجديد، خاصة وأن الرقميات لا تقتصر على الإنترنت ووسائل التواصل الاجتماعي وحدها، فالأسلحة الحديثة كلها تعتمد على الرقميات، وميادين القتال صارت ميادين رقمية، ومعظم أو كل الأسلحة الحديثة تدار بوساطة الرقميات من الطائرات والدبابات والمدرعات إلى أسلحة الأفراد الحديثة، ولهذا تسعى أمريكا منذ زمن لابتكار قنبلة كهرومغناطيسية ذات قدراتٍ عالية، بحيث يتم تفجيرها في سماء العدو قبيل المعركة لتطلق موجة كهرومغناطيسية جبارة قادرة على شلِّ كل رقميات العدو، من أسلحة إلى رادارات، إلى أجهزة كمبيوتر واتصالات، وحتى الهواتف المحمولة، وبهذا تشل قدرة العدو تمامًا على القتال والدفاع.. ومن حسن الحظ أن هذا لم يكتمل بعد على النحو الذي يستثني أسلحة الهجوم من الشلل.. والواقع أنني أتفق مع كل ما يراه المحللون العسكريون بالنسبة لأي حرب محتملة قادمة، فهي لن تكون حربًا نووية، وخاصة بعد أن أدرك العالم التأثيرات المميتة والممتدة للإشعاعات النووية، بل ستكون ودون أدنى شك حربًا رقمية تنهار فيها دول كثيرة دون إطلاق رصاصة خارجية واحدة.. فقط عبر الصفر والواحد، ووسائل التواصل الاجتماعي.. المدمرة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

(٢)
الحقيقة والسراب

في بدايات الألفية الثالثة شاهد الجمهور الأمريكي على شاشات التلفاز إعلانًا عن سيارة حديثة ذات مواصفات خاصة.. والواقع أن هذا الإعلان أثار اهتمام المشاهدين إلى حدٍّ كبيرٍ.. وأثار دهشتهم وانبهارهم أيضًا.. صحيح أن تلك السيارة الجديدة كانت ذات مميزات مدهشة حقًّا بالنسبة لزمنها، ولكن اهتمام ودهشة وانبهار الكل لم يكن يعود إلى السيارة نفسها، ولكن إلى سائقها في الإعلان الذي اختلف عن كل ما شاهدوه من قبل على شاشات التلفاز أو حتى شاشات السينما.. فسائق السيارة في الإعلان كان الممثل الراحل وبطل سباق السيارات السابق "ستيف ماكوين".. و "ستيف ماكوين" أو "تيرانس ستيفن ماكوين"، من مواليد ٢٤ مارس ١٩٣٠م، في بيتش جريفي أنديانا، والتحق في شبابه بقوات المارينز، ثم عمل كميكانيكي وقائد سيارة محترف قبل أن يدرس التمثيل السينمائي في المعهد السينمائي النيويوركي الشهير (أكتورز ستوديو) (Actors Studio) عام ١٩٥٥م ليحصل بعدها على جائزة أوسكار في التمثيل عام ١٩٦٦م، وتوفي في ٧ نوفمبر ١٩٨٠م في مدينة خوارين في المكسيك، متأثرًا بأزمة قلبية عقب عملية جراحية.. الممثل الذي توفي عام ١٩٨٠م قاد سيارة أنتجت في بداية الألفينيات في إعلان مصوَّر متحرِّك.. هذا كان البداية.. بداية ما يُعرَف باسم التصوير الزائف (Fake Face) أو وضع وجه شخص ما على جسد شخص آخر في فيلم سينمائي قصير.. مجرَّد لعبة تكنولوجية بدأتها شركة أدوبي (Adobe) في بدايات الألفية الثالثة، ثم عملت شركة انفيديا (Invidia) على تطويرها عبر برامج أكثر تعقيدًا اعتمدت على دراسة وعزل مئات الصور لشخص واحد، ثم استخدام شخص مماثل في المواصفات الجسدية لإضافة الوجه إليه مع ردود أفعاله المناسبة.. ولقد برعت الشركة في هذا خلال العقد الثاني من القرن العشرين، حتى صار من الصعب على بعض الخبراء كشف زيف الصورة إلا باستخدام برامج عالية الدقة شديدة التعقيد.. هذا جعل الصور الضوئية، وحتى الصور المتحرِّكة غير مضمونة كدليل موثق في قضية ما، وجعل تزييف الواقع لعبة يجيدها حتى بعض المراهقين في هذا العصر باعتبار أن البرامج المساعدة صارت متاحة وليست غالية الثمن إلى حدٍّ مُحبِط.. وكتداعٍ طبيعيٍّ، أدركت أجهزة الاستخبارات المدنية والعسكرية أهمية هذا التطوُّر التكنولوجي المدهش، وبدأت في استخدامه في عمليات تستهدف بعض الشخصيات أو حتى الأنظمة المعادية لها بتلفيق صور وأفلام تضع الشخص المستهدف في لقاء مباشر مع أحد أعدائه أو مع امرأة سيئة السمعة مثلًا.. ولأن معظم العامة لا يعلمون ولا يتصوَّرون وجودَ مثل هذه التكنولوجيا، كان من الطبيعي أن يصدِّقوا ما يرونه

دون أن تراودهم فيه أي شكوك، وأن يلجأوا إلى رد الفعل الذي يسعى إليه عدوُّهم بالضبط.. ثم جاءت مرحلة السوشيال ميديا أو وسائل التواصل الاجتماعي والتي يحلو لي أحيانًا تسميتها بوسائل "التناحر الاجتماعي"، وصار من السهل دس أي صورة زائفة أو فيلم ملفق عبر شبكات التواصل الاجتماعي حتى يتم تناقله بين متابعيها عبر منظومة متتالية هندسية ليطالعها الملايين في كل أنحاء العالم في ساعات قليلة ويقعون جميعهم في الفخ.. واللعبة بدأت مع نشأة وسائل التواصل الاجتماعي عبر اجتزاء أجزاء بعينها من خطاب أحد الرؤساء أو القادة مثلًا وإعادة تركيبها، بحيث يوحي الأمر بأن ذلك الرئيس أو القائد يقول عكس ما قاله بالفعل.. وعبيد السوشيال ميديا يصدقون ويتحولون دون وعيٍ منهم إلى جنود متحمسين في جيش العدو.. الإسرائيليون بدأوا اللعبة منذ ثلاثة عقود، عندما دشن جهاز أمان أو المخابرات العسكرية الإسرائيلية الوحدة ٨٢٠٠ التي يشار إليها باسم وحدة SIGINT وهي فيلق استخباراتي عسكري بدأ كمسؤول عن التجسُّس الإليكتروني وقيادة الحرب الإليكترونية في الجيش الإسرائيلي.. كان هذا منذ ثلاثة عقود، وكان عملها يعتمد في البداية على جمع المعلومات من العملاء البشريين في كل المواقع التي تم تجنيدهم أو زرعهم فيها والعمل على اعتراض الرسائل اللا سلكية للعدو الحالي أو المحتمل، وفك الشفرات والتنصُّت على الهواتف وهكذا.. ولكن مع ظهور وسائل التواصل الاجتماعي، تطوَّرت الوحدة ٨٢٠٠ لتبدأ في تلفيق الصور والأفلام ونشرها عبر وسائل التواصل الرقمية إلى جانب السعي للتواصل مع الشباب العربي عبر مجموعة من الفتيات أو الشباب الذين يدعون كونهم فتيات لمداعبة هرمونات الشباب والعبث بعقولهم، وتجنيدهم لجمع المعلومات عن أوطانهم دون أن يدركوا حتى خطورة ما يفعلونه.. والوسيلة المستخدمة في هذا هي صُنع موقع زائف لشقراء فاتنة مع بعض الصور لها في ثياب فاضحة أو ألبسة بحرٍ مكشوفة مع تحديد أنها ألمانية الجنسية في الغالب وترك الباقي لهرمونات الشباب التي تدفعهم للافتتان بالصور، والسعي للتواصل مع تلك الفتاة المزعومة والتي اختارت الجنسية الألمانية بالذات نظرًا لما هو شائع عن عدم حب أو ارتياح الألمان لليهود، وبعد تبادُل الحوارات والرومانسيات تشير الفتاة المزعومة إلى أنها ترغب في زيارة وطن الشاب، وقضاء بعض الوقت معه، ومن الطبيعي أن يتلهَّف الشاب لهذا ويعلن موافقته وترحيبه بالزيارة المرتقبة، وهنا تخبره الفتاة المزعومة أنها تخشى من زيارة وطنه لأنهم يقولون إنه يعاني من مخاطر أمنية عديدة.. وهنا يبدأ الشاب الملهوف في محاولات تهدئتها وتهدئة مخاوفها؛ عبر إمدادها بالكثير من المعلومات عن وطنه، وهنا يتيقَّن من وراء جهاز الكمبيوتر في الوحدة الإسرائيلية أن ذلك الشاب أيًّا كانت جنسيته مستعدٌ لفعل كل شيء ممكن حتى يصل إلى تلك الشقراء الفاتنة المزعومة، وهنا ينتقل الأمر إلى المرحلة التالية.. مِرحلة سؤاله عن

عائلته وأقاربه وفيما يعملون، ويتم هذا على نحو يبدو تلقائيًّا؛ ليقود إلى أحد أمرين.. إما أن يكون للشاب فرد من العائلة أو قريب من الأقارب يعمل في جهة سيادية أو عسكرية، وهنا يتم التركيز على التواصل معه ودفعه للكشف عن المزيد عن كل ما يعرفه من معلومات عن طريق عائلته وأقاربه، تمهيدًا لمحاولة تجنيده مستقبلًا، أو يتضح أنه ليس لديه أي قريب يمكن الاستفادة منه، وهنا تختفي الفتاة المزعومة حتى تنتقل إلى هدفٍ جديدٍ.. ومن الطبيعي أن يصاب الشاب بلوثة محدودة ويحاول في استماتة استعادة الاتصال الذي لا يتم ثانية أبدًا في المعتاد.. ربما مرَّ بعض من يقرأون هذا، بالتجربة أو علموا أن أحد معارفهم قد مرَّ بها منذ عدة سنوات باعتبار أنها لم تعد مستخدمة بنفس القدر الآن، بعد أن وضعت السوشيال ميديا قواعد جديدة للعبة.. ومن هنا نشأت وحدة أو كتيبة القتال الإليكتروني والتي تسعى لاختراق بعض المواقع ودس أخبار ومعلومات زائفة عليها وترويج تلك المعلومات والأخبار المغلوطة على أكثر من ثلاثة ملايين موقع زائف، مما يوحي بصدق المعلومات لدى عبيد وكهنة السوشيال ميديا.. وفي الآونة الأخيرة انتشر ما يُعرَف باسم تسريبات المحادثات الهاتفية التي صار الكل مهووسًا بها، يؤمن بصحتها على الفور ويسعى لنشرها على أوسع نطاق ممكن دون أن يدرك أن هذا يجعله مجرَّد قطعة شطرنج على لوحة كبيرة بحجم العالم كله، وأن هذا بالضبط الموقع الذي وضعه فيه من يدير اللعبة.. واللعبة ليست معقَّدة بل هي سهلة للغاية، ولو تم سؤال أي مهندس صوت عنها لأخبرك أنه يمكن لطفل عادي القيام بها عبر برنامج صوتي بسيط، خاصة وأن تغيير بعض تردُّدات الصوت لجعلها أشبه بصوت يتردَّد عبر هاتف، يجعل تمييزها بدقة أمرًا شِبه مستحيل إلا بالنسبة لخبراء أو مهندسي الصوت.. وحتى هذا صار جزءًا من العالم القديم، أما المستقبل وحتى الحاضر في لحظة كتابة هذه السطور فهو أمرٌ شديدُ التعقيد ومخيف إلى حدٍّ مروِّع.. ففي جامعة أونتاريو بكندا ابتكر ثلاثة طلاب خوارزمية متعلمة يكفيها أن تستمع إلى صوت ولهجة وأسلوب شخص ما عبر عدة تسجيلات وتسجيل ترددات صوته حتى يمكنها تقليده على نحوٍ يخدع الخبراء أنفسهم.. ويكفيك مع برنامجهم أن تتحدَّث أنت بصوتك ولهجتك وأسلوبك ويسمع الكل ما تقوله بصوت ولهجة وأسلوب الشخص الذي جمع البرنامج معلوماته على نحوٍ لا يمكن تمييزه أبدًا.. الخوارزمية اسمها (Layer bird) وهي خوارزمية تعلُّم عميقة تفتح الباب لكثير من المضاعفات والخداع المستقبلي.. الشركة التي حصلت على حق استغلال تلك الخوارزمية الجديدة هي نفسها التي أنتجت من قبل برنامج (Pandora) الذي كان يستخدمه العالم الفيزيائي الفلكي العبقري الراحل "ستيفن هوكينج" (٨ يناير ١٩٤٢ – ١٤ مارس ٢٠١٨م) والذي مكَّنه من الحديث على نحوٍ رقمي على الرغم من عجزه عن هذا فعليًّا، وهو برنامج يحوِّل الكمبيوتر إلى حنجرة صناعية لمن يعجزون عن النطق لسببٍ أو لآخِر.. وبرامج مثل "لايربيرد" أو (Voco) تجعل المستقبل أمامنا

غامضًا مجهولًا، ويجعل اعتمادنا على حواسنا الطبيعية مشكوكًا في أمره، فكل ما نراه أو نسمعه لن يعود بإمكاننا الجزم بأنه حقيقة بحيث سيعتمد الأمر على عقولنا وعلى القرار المسبق لنا، فلو أن عقلك يتبنى اليمين مثلًا فستصدق كل ما يؤيِّده وترفض كل ما يخالفه والعكس.. لهذا قال الأديب والمفكِّر الألماني "يوهان فولفجانج فون جوته" (١٧٤٩ – ١٨٣٢م) عبارته الشهيرة: «لا يوجد من هو مستعبد بلا أمل أكثر ممن يظنون خطأً أنهم أحرار».. المعنى هو أنه عندما تسيطر على عقلك وكيانك فكرة ما وتقنعك بأن اغتنامها هو كل العزة والكرامة ومخالفتها هي العار والهزيمة والاستسلام، فعندئذ لا تصير حُرًّا بل عبدًا لفكرة تستعبدك وتسيطر على كيانك وتحدِّد لك اتجاهك الذي لا تملك أن تحيد عنه لحظة وكأنك قطارٌ يسير على قضبانٍ وستقع كارثة لو خرجَ عنها.. والعبيد هم أكثر مَن يمكن السيطرة عليهم وتسييرهم في قطيع مطيع وموجة طائشة لا تدرك أن الشاطئ أقوى منها لأنها تنكسر دومًا عليه وترتد خائبة خاسرة.. أما العقل الحر الذي انتصر على عبودية الفكرة فسيبقى وحده القادر دومًا على التمييز بين الحقيقة.. والسراب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(٣)

جاسوس النصف قرن

أكثر من خمسين عامًا مرّت على أوَّل ظهورٍ لأشهر جاسوس على الشاشة طوال ما يزيد عن نصف قرنٍ من الزمان دون أن تنجح أي شخصية جاسوسية أخرى في منافسته أو حتى بلوغ ذلك المستوى الذي بلغه من عدد مشاهديه أو إيرادات أفلامه بدءًا من (دكتور نو) وحتى آخر أفلامه.. والعميل السري أو الجاسوس البريطاني الأشهر هو (جيمس بوند) الذي يحمل الرقم (٠٠٧) وهو ذلك الرمز الكودي المتميِّز الذي يعني أنه يحمل تصريحًا دائمًا بالقتل دون الرجوع إلى رؤسائه والذي بدأ كروايات أو قصص قصيرة لمبتكر الشخصية (أيان فليمنج) والذي كوَّن الشخصية من مزيج من بعض الشخصيات التي التقى بها أو عمل معها عندما التحق بالمخابرات البحرية البريطانية في زمن الحرب العالمية الثانية.. والطريف أن (فليمنج) كان شابًا عابثًا لأسرة إنجليزية عريقة يَئِست أمه من محاولة تقويم سلوكه أو حتى إقناعه بالعمل في شركة الأوراق المالية التي تملكها الأسرة فسعت لإلحاقه بكلية عسكرية؛ لعلَّ هذا يساعده على الانضباط، إلا أنه استغل وسامته الشديدة لإقامة علاقة مع زوجة مدير الكلية العسكرية في استهتار كامل، مما أدى إلى انكشاف أمرهما، وإلى فصله من الكلية مما أجبره على العمل في شركة الأوراق المالية للأسرة..

ولكن اندلاع الحرب العالمية الثانية أجبر الشركة على إغلاق أبوابها، فخشيت الأم من عودة (فليمنج) إلى حياة العبث، ومن اضطراره للالتحاق بالجيش والسفر إلى الجبهة، فسعت لإلحاقه بوظيفة عسكرية إدارية عبر صديق للأسرة اتخذه سكرتيرًا خاصًا في المخابرات البحرية البريطانية.. وهناك تألَّقت قريحة (فليمنج) وظهرت مواهبه الفذة في ابتكار وسائل العمليات الاستخباراتية غير المعتادة والتخطيط للضربات على نحو غير متوَّقع.. وعلى الرغم من مواهبه، لم يتجاوز (فليمنج) وظيفته كسكرتير عسكري داخل المخابرات البحرية حتى وضعت الحرب أوزارها فتم صرفه من الخدمة ليعود مضطرًا للعمل في شركة الأوراق المالية التي فتحت أبوابها مرة أخرى بعد الحرب.. في تلك الفترة ابتكر (فليمنج) شخصية (بوند)، الجريء المغامر، صاحب الشخصية المميزَّة، واختار له اللهجة الإسكتلندية التي أعجبته من رئيسه المباشر في فترة العمل في المخابرات.. ومن مجموعة قصص قصيرة إلى رواية وأخرى جذبت الشخصية انتباه واهتمام صنَّاع السينما واختاروا قصة (دكتور نو) كأوَّل عمل يقدِّم (بوند) على الشاشة، والطريف أنهم اختاروا الممثل ذائع الصيت آنذاكٍ (جريجوري بيك)؛ لأداء دور (جيمس بوند)، ولكن (بيك) كانت له مطالب رفض المخرج الرضوخ لها، فقرَّر أن يتحدّى شعبية

(جريجوري بيك) ويختار ممثلًا جديدًا؛ للعب دور (بوند) على الشاشة.. باختصار لقد راهن على الشخصية بأكثر مما راهن على النجم.. وعندما بدأ اختيار من يؤدي دور بوند لم يَرُق أي من المتقدِّمين للمخرج (تيرنس يونج) حتى إنه فكَّر في إعادة التفاوض مع (جريجوري بيك)، لولا أن ساقت إليه الأقدار (شين كونري) الذي جذبَ بعض اهتمامه بلهجته الإسكتلندية المتميِّزة، وقامته الرياضية الممشوقة إلا أنه لم يحسم قراره بشأنه تمامًا، وبدأ التفكير في (بيك) حتى بعد انصراف (كونري).. وكان (يونج) منهمكًا في التفكير أمام النافذة عندما شاهد (كونري) ينصرف بقامة ممشوقة وخطوات واثقة قوية فهتف فجأة: «أريد هذا الرجل».. وقد كان.. وفي عام ١٩٦٢م ظهر أوَّل أفلام (بوند) (دكتور نو) المأخوذ عن رواية بنفس الاسم كتبها (فليمنج) عام ١٩٥٨م، وقام ببطولته (شين كونري) مع صاروخ الإغراء في ذلك الحين (أورسولا أندرسن) حيث دارت الأحداث في (جاميكا) وهناك يتصدَّي (بوند) للعدو (دكتور جولياس نو) الذي يعترض إطلاق الصواريخ الأمريكية بموجات راديو قوية.. لم تكن رواية (دكتور نو) هي أوَّل روايات (فليمنج) عن شخصية (بوند) وإنما كانت روايته الأولى هي (كازينو رويال) والتي لم تنتج سينمائيًّا إلا بعدها بعشرات السنين، ولكن (دكتور نو) كانت بداية الانطلاق لشخصية (بوند) في عالم السينما، ولعددٍ آخر من شخصيات حاولت تقليده في سينما الجاسوسية، ولكن تركيبتها لم تحقِّق النجاح ذاته.. ولقد تعاقب عددٌ من الممثلين على أداء شخصية (بوند) خلال نصف قرن، فمن بداية الشخصية سينمائيًّا مع (شين كونري) ثم محاولة إحلاله بالممثل المسرحي (جورج ليزنبي) فقط لمجرَّد التشابه الشكلي بينهما، ثم فشل (ليزنبي) بعد فيلم واحد، واختيار (روجر مور) بطل الحلقات التليفزيونية (القديس) للعب دور (بوند) لعدة سنوات، ثم (تيموثي دالتون)، وبعده (بيرس بروسنان)، ثم (دانيال كريج).. تعاقب من أدوا الدور وبقيت شخصية (بوند) تتحدَّي عالم سينما الجاسوسية، وتنتقل من نجاح إلى نجاح على نحوٍ تحوَّل إلى أسطورة على الشاشة تصعب منافستها بعد نجاحٍ دامَ واستقر لنصف القرن.. وعلى الرغم من أن (بوند) يمثل التيار الكلاسيكي النمطي في شكل وطبيعة الجاسوس، ومن أن عشرات الشخصيات الأخرى قد سعت لمواكبة التطوُّر، ونجحت في رسم صورة مغايرة للجاسوس، إلا أن شخصية (بوند) بقيت مطلوبة على الشاشة بكل كلاسيكيتها ونمطها؛ فهو الجاسوس الوسيم الحذر الذكي صاحب العقلية الثعلبية والمهارات التي لا حدود لها، والذي يواجه دومًا شخصيات غير عادية لكل منها نمط غير تقليدي، وتسعى كلُّها إلى هدفٍ واحدٍ ألا وهو السيطرة على العالم على نحوٍ أو آخر.. فالجمهور أحب (بوند) على ما هو عليه وعشق دهاءه وذكاءه وسعة حيلته وحتى شغفه بالجميلات والملابس الأنيقة والأجهزة الحديثة المبتكرة التي يفاجئ بها جمهور السينما دومًا في مواجهاته مع الآخرين.. المدهش أن معظم الابتكارات التي ظهرت في عالم (بوند) والتي

بدت مبهرة في حينها قد صارت اليوم سلعًا متاحة على شبكة الإنترنت لأي مُستهلِك عادي، ولم تعد مبتكرات (بوند) هي التي تثير المشاهد، وإنما (بوند) نفسه والذي ينتظر الكل فيلمه القادم في شوقٍ ولهفةٍ دلالة على نجاح الشخصية المبهر خلال نصف قرن.. وعلى الرغم من النجاح الكبير لأفلام (جيمس بوند) في المجتمعات العربية على وجه العموم، والمجتمع المصري على وجه الخصوص، إلا أن شاشات السينما لدينا لم تُنجِب بَعد أيَّ شخصية مماثلة ربما لأن القانون يفرض مراجعة الأجهزة الاستخباراتية والأمنية لمثل هذه الأعمال الدرامية، على الرغم من ضعف الثقافة الدرامية لدى رجال الجهات الأمنية والاستخباراتية في هذا الشأن وحساسياتهم المفرطة تجاه كل ما يتعلَّق بهم، وإصراراهم على أن كل ما لا يتوافق مع الحقيقة والواقع بنسبة مائة في المائة يسيء إليهم وإلى أجهزتهم، على الرغم من أننا لم نسمع أو نقرأ دراسةً واحدةً تشير أو حتى توحي بأن أفلام (جيمس بوند) أو مثيلاتها قد أساءت إلى جهاز المخابرات البريطاني أو الأمريكي أو أي جهاز آخر، بل على العكس تمامًا، لقد زادت من انبهار العامة به ومن احترامهم له، ولكنها مشكلة الرقابة دومًا أيًّا كانت جهتها، أنها تصر على تسييد فكرها ورؤيتها دون محاولة النقاش أو المراجعة.. وبغض النظر عن عدم وجود شخصيات سينمائية استخباراتية على الشاشة على الرغم من وجودها في الأدب المطبوع، فأفلام الجاسوسية على نحوٍ عامٍ لم تبلغ لدينا حدَّ الفيلم المتقن بأي حالٍ من الأحوال؛ فقديمًا شاهدنا فيلم (جريمة في الحي الهادي) والذي بدا فيه الجواسيس في صورة ساذجة ضعيفة يسيل لعابهم على امرأة جميلة ويدمنون المواد المخدِّرة، ويفقدون أعصابهم في سرعة، وكل ما يخالف طبيعة أصغر جاسوس في أصغر دولة، ورأينا فيلم (الجاسوس) لملك الترسو آنذاكٍ (فريد شوقي) والذي حاول من خلاله تقليد أفلام وشخصية (بوند) حتى إنه اختار للبطل أن يكون ضابطًا في القوات البحرية؛ حتى يرتدي نفس الزي ارتداه (بوند) في بعض أفلامه، وفي ذلك الفيلم شاهدنا الفنان (عزت العلايلي) يلعب دور الجاسوس على النحو الذي يناسب الأفلام الهزلية بأكثر مما يناسب الأفلام الجادة؛ إذ يرتدي معطف مطر ومنظار شمس أسود في قلب الليل، ولا تنقصه سوى لافتة توضع على صدره وعليها إشارة واضحة إلى أنه جاسوس!.. ولكن أفلام الجاسوسية الأفضل لم تظهر على الشاشة إلا عقب حرب أكتوبر ١٩٧٣م، عندما ظهر أوَّل فيلم عن الجاسوسية مأخوذ عن قصة حقيقية ومعالج بحرفية، جعلته أفضل فيلم جاسوسية مصري، وربما حتى لحظة كتابة هذه السطور وهو فيلم (الصعود إلى الهاوية) والذي روى تفاصيل واحدة من أنجح عمليات المخابرات العامة المصرية قبيل حرب أكتوبر.. والفيلم الذي قام ببطولته الفنان القدير (محمود ياسين) مع النجمة الراحلة (مديحة كامل) وأخرجه (كمال الشيخ) تعامل ولأوَّل مرة على الشاشة العربية مع عالم المخابرات بوعيٍ واقتدارٍ وبحرفيةٍ تتناسب مع الواقع الفعلي

لذلك العالم المثير، وفتح الباب ًلنوعية َجديدة من دراما الجاسوسية والتي كان الفيلم هو نقطة التحوُّل في مسارها.. وهذا يختلف بالتأكيد عمَّا خرجت علينا به (نادية الجندي) من مجموعة من أفلام ساذجة المضمون، ولكنها حققت نجاحًا جماهيريًّا كبيرًا فقط لأنها تتحدَّث عن عالم المخابرات بكل غموضه وأسراره.. في ذلك الحين ومع قلة عدد أفلام المخابرات على الشاشة الكبيرة، فاجأ التليفزيون المصري مشاهديه بواحد من أروع مسلسلات الجاسوسية عبر تاريخ الدراما كله وهو مسلسل (دموع في عيون وقحة) والذي قام ببطولته الفنان (عادل إمام) مع (معالي زايد) و (مشيرة) و (مصطفى فهمي) وروى قصة (أحمد الهوَّان) الذي حاول الإسرائيليون تجنيده عقب نكسة يونيو ١٩٦٧م، ولكنه لجأ إلى المخابرات المصرية التي جعلته يتعاون معها على خداع العدو الإسرائيلي الذي وثقَ في انتمائه إليه تمامًا، حتى إنه منحه أحد أقوى وأحدث أجهزة الاتصال حينذاك والذي لم يكن سوى النسخة الأوَّلية من الهاتف المحمول الذي يحمله كل شاب الآن.. حوَّل المسلسل الذي كتبه الراحل المبدع (صالح مرسي) اسم (أحمد الهوَّان) إلى (جمعة الشوَّان)؛ لأسباب أمنية صرفة وتعلَّقت عقول وقلوب شعب (مصر) من (الإسكندرية) إلى (أسوان) بمجموعة المسلسل الذي يطلق عليه الناس اسم (مسلسل َجمعة الشوَّان) حتى إن الشوارع كانت تخلو من المارة في زمن عرضه وتألَّق فيه (عادل إمام) وهو يؤدي دور الشاب البسيط الذي وجدَ نفسه أمام موقف يفوق إمكانية فلجأ إلى مخابراته التي أدارت صراعًا عبقريًّا مع العدو وربحته في النهاية لتحقِّق انتصارًا جديدًا على المخابرات الإسرائيلية.. وتعود أهمية هذا المسلسل بالتحديد إلى أنه قد وضع المُشاهِد أمام حالة جديدة من دراما الجاسوسية، إذ لم يكتف عم (صالح) بنقل تفاصيل العملية الاستخباراتية، وإنما صنع خلفية اجتماعية ممتازة لبطله (جمعة الشوَّان) وجعلك تشعر به وبحياته ومعاناته ومشكلاته وتتفهَّم مبررات سفره وتعامله مع مندوب المخابرات الإسرائيلية، ثم تتفاعل مع موقفه عندما قرَّر مع كل ما يمر به من أزمات أن يتخلى عن كل إغراءات العدو ويمد يده إلى وطنه.. وكما كان فيلم (الصعود إلى الهاوية) علامة فاصلة في سينما الجاسوسية على الشاشة الكبيرة، صار مسلسل (دموع في عيون وقحة) علامة فاصلة في دراما الجاسوسية على الشاشة الصغيرة.. فبعدها لم يكن من الممكن إنتاج مسلسلات ساذجة المعنى أو بسيطة المضمون، وصار المسلسل هو النموذج الذي ينبغي أن تسير عليه المسلسلات التالية.. ولكن دراما الجاسوسية لم تحظَ بعدها بالاهتمام الكافي على الرغم من نجاح مسلسل (دموع في عيون وقحة) وإعادة عرضه أكثر من مرة، فقد جاءت الأعمال التالية للمسلسل ضعيفة ودون المستوى مما أدى إلى انصراف المشاهدين عن هذه النوعية من الأعمال، حتى عاد عم (صالح) مرة أخرى.. فذات يوم طالعتنا مجِلة المصوِّر بالحلقة الأولى من رائعة عم (صالح) ودرة

دراما المخابرات (رأفت الهجَّان) وهي رواية مأخوذة من واقع ملفات المخابرات المصرية عن شخصية (رفعت الجمَّال) الذي تم تجنيده في زمن سابق لإنشاء المخابرات العامة رسميًّا من أجل رصد تحرُّكات اليهود المصريين بعد الثورة، خاصة وأن (إسرائيل) كانت تشعر أن الثورة المصرية نقطة خطر في مسارها، وكان معظم اليهود المصريين يؤازرونها في ذلك الحين، مما وضع فكرة زرع عين للأمن وسطهم، ومع سقوط (رفعت) في قبضة الأمن ومع ما يتمتَّع به من ذكاء وبراعة وقدرة على الاحتيال على الآخرين، تم إقناعه بالعمل لحساب الأمن المصري مقابل العفو عن بعض تجاوزاته السابقة، ثم.. ومع نجاح تقمصُّه واندماجه في المجتمع اليهودي والذي تزامن مع قرار إنشاء المخابرات المصرية، تم إعداده للسفر إلى (إسرائيل) كعميل مزروع هناك؛ بحيث يصبح عينًا نافذة للمخابرات المصرية في قلب المجتمع الإسرائيلي.. ولقد لاقت رواية عم (صالح) رواجًا مدهشًا ونجاحًا عظيمًا، مما أسفر عن تحويلها إلى مسلسل تليفزيوني يُعَد الأشهَر بين كل دراما الجاسوسية على الشاشة الصغيرة حتى يومنا هذا، على الرغم من ميزانية إنتاجه المحدودة وديكوراته البسيطة، ولكنه جذب المشاهدين من اللحظة الأولى مع مشهد موت البطل الذي بدأت به الأحداث والذي جمع النجمين (محمود عبد العزيز) و (يسرا) والذي كان يفترض منه أن يكون بمثابة خطأ درامي؛ إذ أنه ليس من الطبيعي أن تتابع دراما جاسوسية ينبغي أن تشعر فيها بالقلق على البطل، في حين أنك تعلم من المشهد الأول أنه قد مات في فراشِه في سن متقدِّمة، ودون أن ينكشف أمره، ولكن المُشاهِد حوَّل وجهة تفكيره مع تلك البداية إلى سؤال مختلف تمامًا وهو: كيف نجح في أن ينتحل شخصية يهودي ويحيا كل هذا الوقت في (إسرائيل) ويكوِّن كل هذه العلاقات دون أن ينكشف أمره؟!.. ولأن الأحداث قد انتقلت من هذه المفاجأة الأولى إلى متابعة كيفية العثور على (رفعت الجمَّال) أو (رأفت الهجَّان) كما اسماه عم (صالح)، ومبرِّرات اختياره وخطوات تدريبه على مهمته، فقد شغف المشاهد بهذا العالم الغامض وأساليبه الدقيقة غير المباشرة، وانبهر بتطوُّرات الموقف وسيطرة المخابرات المصرية على رقعة اللعبة في كل خطواتها، وانحبست أنفاسه مع المواقف التي واجهت (رأفت) في مرحلة إعداده، وتلاحقت نبضاته مع كل مواجهة مع عيون (الموساد) في (مصر).. وأخيرًا رقصَ الكل طربًا مع مشهد النهاية عندما كان (رأفت) يوَّدع رجل المخابرات (محسن ممتاز) قبيل رحيل سفينته من (مصر) مباشرة.. ومرة أخرى خلت الشوارع من المارة تقريبًا، وصمتت الأصوات في المقاهي مع زمن عرض الجزء الأوَّل من (رأفت الهجان)، ونجح عم (صالح) للمرة الثانية في أن يصنع من الجاسوس شخصية ثلاثية الأبعاد، تشعر بها وتعيش معها، وتتعاطف مع كل خطوة لها، وتفرح بنجاحها وتحزن كلما واجهت الخطر.. الأهم من هذا أن مسلسل (رأفت الهجَّان) وما صاحبه من نجاح مبهر قد أعاد الحيوية في قوة

إلى دراما الجاسوسية سواء على الشاشة الكبيرة أو الصغيرة، وشهدت السينما موجة من أفلام الجاسوسية، منها تلك الأفلام التي أشرنا إليها من قبل للفنانة (نادية الجندي)، مع أفلام استغلت نجاح (محمود عبد العزيز) في أداء دور الجاسوس مثل (إعدام ميت) وأفلام أخرى للفنان (نور الشريف) وغيره.. ثم جاء الجزء الثاني من مسلسل (رأفت الهجَّان) والذي يبدأ بوصوله إلى (إسرائيل) ومراجعة الأمن له هناك، ثم سار معه في مشوار حياته حتى استطاع مدّ جذوره في المجتمع الإسرائيلي، وما صحب هذا من علاقات عاطفية خلبت لُب المشاهد وسحرته بعالم من الغموض والأسرار والرومانسية والمغامرة والخطر.. وكالمعتاد، سال لعاب عدد من كبار الفنانين على دراما الجاسوسية، وانضم إليهم المخرجون وشركات الإنتاج، وبدأ التهافت على أعمال عم (صالح) فظهرت مسلسلات مثل (الحفَّار) والذي لم يحظَ بأي نجاح يُذكَر على الرغم من قوة مؤلفه (صالح مرسي) وقوة العمل الأدبي المطبوع ،و(الثعلب) للكاتب (إبراهيم مسعود) والذي لاقى المصير نفسه، مع عدد من أفلام السينما التي لم ترقَ أبدًا لمستوى أوَّل أفلام دراما الجاسوسية الحقيقية (الصعود إلى الهاوية).. ومع عرض الجزء الثالث من (رأفت الهجَّان) والذي لم يلقَ نفس نجاح الجزئين السابقين، كانت هناك عدة أعمال من دراما الجاسوسية على الشاشتين تحاول التفوَّق عليه أو حتى اللحاق به، إلا أنها -وعلى الرغم من ضعف الجزء الثالث عما سبقه- لم تستطع الفوز بنصيب إلى جواره.. ثم ومع نهاية التسعينيات هدأ سباق دراما الجاسوسية إلى حدٍّ ما، وانشغل الكل بدراما الفساد السياسي التي صارت سمة من سمات ذلك العصر، وراحت الشاشتان تتحوَّلان إلى صرخة شعب يجأر مما يحيط به من فساد كاد أن يسلبه حتى الانتماء لوطنه.. ثم فجأة ومع الألفية الثالثة دبَّت الروح مرة أخرى في دراما الجاسوسية على الشاشتين، وعادت مسلسلات الجاسوسية تشق طريقها وسط سباق الدراما الرمضانية والتي صارت الدراما الوحيدة التي يسعى إليها منتجو الشاشة الصغيرة، ولكن الأعمال هذه المرة على الرغم من ميزانية إنتاجها الضخمة التي تفوق بخمسين ضعف على الأقل ميزانية الجزء الأوَّل من (رأفت الهجان)، ومن حشد عدد هائل من النجوم فيها، ومن مشاهدها العديدة التي يتم تصوير معظمها خارج (مصر)، إلا أنها لم تكن بنفس جودة ونجاح المسلسلات القديمة، ربما لأن مخرجيها على الرغم من تاريخهم العريق، لم يحاولوا فهم واستيعاب قواعد ونظم المخابرات والاستعانة بمن يرشدهم إليها كما كان يفعل (كمال الشيخ) و(يحيى العلمي) قديمًا؛ لذا فقد جاءت التصرَّفات الأمنية في المسلسلات الحديثة أقرب إلى تصرفات البحث الجنائي منها إلى تصرَّفات استخباراتية دقيقة ومدروسة، وبدا بعضها ساذجًا إلى حدّ لا يصلح حتى لخفير نظامي، فما بالك برجال مخابرات يواجهون خصومًا محترفين طوال الوقت!!.. والأمر الذي أثار المشاهدين في دراما الجاسوسية الجديدة

هو انفصال المشاهد عن زمن الأحداث على نحوٍ لا يمكن وصفه إلا بأنه مستفز؛ فالأحداث تدور في الستينيات أو أوائل السبعينيات، وعلى الرغم من هذا يستخدم مَن فيها سيارات حديثة تعود إلى الألفية الثالثة ويجرون اتصالاتهم بهواتف محمولة لم توجد قبل التسعينيات، وعبر أجهزة فاكس تم اختراعها في الثمانينيات، ويسيرون في شوارع بها لوحات رقمية مضيئة، وفي محال تستخدم أجهزة كمبيوتر محمولة ومتطوَّرة ،ثم يدور الحديث طوال الوقت باعتبار أن كل هذا يُعِدّ لحرب أكتوبر ١٩٧٣م وكأن المشاهد سيساير الأحداث أو يغض النظر عما يراه.. وهكذا حققَّت دراما الجاسوسية في (مصر) حالة فريدة من نوعها في أي مكان في العالم، إذ بدأت قوية جذابة، ثم راحت تنحدر حتى صارت هزيلة هزلية.. كل هذا و(جيمس بوند) الذي تتطوّر أفلامه في سرعة وقوة، ما زال يواصل نجاحه ويواصل جذب المشاهدين وحصد الإيرادات، وإثبات أنه وعلى الرغم من كل الانتقادات التي وجِّهت له عبر تاريخه، ما زال أشهر وأنجح جاسوس عرفَتْه السينما في كل عصورها... الجاسوس الذي حصل هذا العام على لقبٍ لم يفز به أحدٌ من قبل.. لقب (جاسوس النصف قرن).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(٤)

حتى التقنية.. حروب

التقنية مصطلح عربي مرادف لمصطلح التكنولوجيا، ولكن التقنية التي سنتحدَّث عنها هنا ليست هي التكنولوجيا المعروفة في عالمنا الآن، ولكنها الوسائل المختلفة التي استُخدِمَت عبر التاريخ لنقل الأسرار أو حمايتها أو حتى الحصول عليها وضمان عدم توصُّل العدو لها عبر عدة أساليب مبتكرة بعضها بسيط وبدائي، وبعضها تطوَّر إلى حدٍّ يفوق إدراك وتصوُّر المواطن العادي البسيط الذي لا يشغل باله بالحروب الدائرة من حوله أو حتى يقلق بشأنها ببساطة لأنه في معظم الأحيان لا يشعر بوجودها أو حتى يدركها.. ففي زمن فراعنة مصر القدامى عندما كانت الشعوب كلها تتقاتل وتتحارب للفوز بغنيمة أو بموقع على البحر أو بأرض خصبة، ابتكر أجدادنا وسيلة بسيطة وفعَّالة؛ لنقل الأسرار إلى المواقع البعيدة؛ فكانوا يأتون بعبدٍ ويحلقون شعره تمامًا ثم يوشمون الأسرار على جلد رأسه وينتظرون حتى ينمو الشعر قليلًا ويخفي الوشوم أسفله، ثم يرسلونه إلى حيث قياداتهم في الجبهات البعيدة.. وخلال الرحلة من الطبيعي أن ينمو شعر العبد أكثر ويخفي الوشوم تمامًا حتى يصل إلى مبتغاه، وهناك يقوم القائد بحلاقة رأس العبد وقراءة الرسالة وبعدها.. ويالأسف يقوم بقتل العبد وسلخ جلد رأسه وحرقه حتى لا تقع الرسالة في يد أحد الأعداء.. ثم تطوَّرت الأمور وراح بعضهم يستخدم الحمام الزاجل في إرسال المعلومات وتلقِّي التعليمات حتى ظهر التليجراف في عام ١٨٣٥م على يد العالم "صمويل فينلي بريز مورس" (٢٧ أبريل ١٧٩١- ٢ أبريل ١٨٧٢م) وبتطوير مساعده البروفيسير "ليونارد جيل" أستاذ الكيمياء بجامعة واشنطن، وهنا أمكن نقل الرسائل والمعلومات والتعليمات لمسافة عشرات الكيلو مترات ولكن مع عقبة كئود.. لقد كان هذا يتم عبر أسلاك تمتد بطول المسافة، وكان قطع تلك الأسلاك كفيلًا بقطع الاتصالات تمامًا بين القيادة والجبهة في زمن الحروب، أو بين المراكز الرئيسية والفروع في أزمنة السِّلم، وبعدها ظهرت أجهزة التليفون التي ابتكرها الإيطالي "أنطونيو ميوتشي" والذي ظلَّ منسيًّا كمخترع ونسب الفضل إلى "جراهام بيل" الذي صنع أوَّل هاتف عبر تصميمات ميوتشي حتى اعترف مجلس النواب الأمريكي في عام ٢٠٠٢م فقط بأن ميوتشي هو المخترع الحقيقي للهاتف.. ولكن وعلى الرغم من ابتكار التليفون عام ١٨٨٩م، إلا أن المشكلة نفسها بقيت.. مشكلة الأسلاك والاتصالات التي تعتمد على امتدادها، ولذلك لم يكن على العدو سوى قَطْع الأسلاك لفصل قيادة عدوِّه عن جبهاتها، ولذلك بدأت مرحلة ابتكار تقنيات جديدة لنقل واستقبال المعلومات، وخاصة خلال الحرب العالمية الأولى (٢٨ يوليو ١٩١٤ – ١١ نوفمبر ١٩١٨م) ففي تلك المرحلة راح

المتحاربون يبتكرون الوسيلة تلو الأخرى، مثل الخطابات المشفرة وقطع الأثاث التي تحوي فجوات وأزرار المعاطف الكبيرة التي تختفي داخلها المعلومات في أوراق صغيرة مكتوبة بخطٍّ دقيقٍ.. ومن الطريف في تلك المرحلة أن تقنية أزرار المعاطف هذه ظلت ناجحة لعامٍ، حتى كشف العدو أنه إذا ما أدار الزر إلى اليمين انفتح وظهرت الرسالة داخله، فما كان من الطرف الآخر إلا أن ابتكر أزرارًا تُغلَق بإدارتها إلى اليمين بدلًا من العكس، ولقد نجح هذا في خداع العدو حتى نهاية الحرب على الرغم من بساطته..

ولكن في الحرب العالمية الثانية كان جوليلمو ماركوني (٢٥ أبريل ١٩٧٤ – ٢٠ يوليو ١٩٣٧م) قد ساهم في كشف الموجات الكهرومغناطيسية وأرسل أول إشارة لاسلكية عبر الأطلسي، من أوروبا إلى أمريكا عام ١٩٠١م، وحصل على جائزة نوبل للفيزياء عام ١٩٠٩م بالاشتراك مع "كارل فرديناند براون" عن اختراعهم للتلغراف اللاسلكي؛ لذا فلم يكن على المهندسين "دونالد هنجز" و "ألفريد جروس" سوى تطويره خلال الحرب العالمية الثانية لصنع جهاز إرسال عسكري أشبه براديو محمول، ولكنه يمتلك القدرة ليس على الاستقبال فحسب، ولكن على الإرسال أيضًا.. ولأن التكنولوجيا ليست حكرًا على أحد فقد توصَّلَت الأطراف الأخرى أيضًا إلى اللاسلكي وصارت المشكلة كلها تكمن في معرفة موجة الاتصال لسماع واستقبال كلّ ما تنقله أجهزة اللاسلكي عند الطرف الآخر.. ومن هنا بدأت تقنية التشفير لمنع العدو من فهم فحوى الرسالة حتى لو أمكنه اعتراضها.. كانت الرسائل أيامها وبخاصة السرية منها ترسل بوساطة إشارات مورس أو شفرة مورس التي ابتكرها "صمويل مورس" عام ١٨٢٠م والتي تعتبر أول استخدام تقني للغة الصفر الواحد المستخدمة في الرقميات اليوم، وكانت الرسائل كلها عبارة عن ثلاث مجموعات من الأرقام، المجموعة الأولى تمثِّل رقم الصفحة في نسخة من كتاب مُتَّفَق عليه بين المرسل والمستقبل والمجموعة الثانية هي رقم سطر في الصفحة، أما المجموعة الثالثة فهي رقم كلمة.. ولكي تفهم فحوى الرسالة حتى لو تم اعتراضها يتحتم عليك معرفة عنوان الكتاب وطبعته بالتحديد، ولم يكن هذا سهلًا في وجود آلاف الكتب التي تملأ أرفف المكتبات، ولكي يصبح الأمر أكثر صعوبة، ابتكر الألمان إضافةً جديدةً لتلك الشفرة ألا وهي ثلاثة أرقام تُوضَع كمفتاح يضاف الرقم الأوَّل على الأرقام في العمود الأول والثاني على الأرقام في العمود الثاني وهكذا.. وفي تلك المرحلة كان يتحتم على أي جهازٍ أمنيٍّ معرفة الجاسوس مستخدم الشفرة ومعرفة الكتاب المُستخدَم ومفتاح الاتصال أيضًا بكل ما يمثله هذا من صعوبة.. وكشف شفرة اتصالات العدو كان من أهم وأصعب وأعقد العمليات لدى كل جهاز مخابرات وهناك عشرات من العمليات المدهشة والتضحيات الكبيرة التي بذلت؛ للفوز بشفرة الاتصالات اليابانية والألمانية في زمن الحرب العالمية الثانية.. وعندما كشفت إنجلترا وثائق الحرب العالمية الثانية عام

٢٠٠٥م تبين أنها كانت قد كشفت شفرة الاتصال اليابانية قبل عامٍ من ضربة "بيرل هاربور" تقريبًا (٧ ديسمبر ١٩٤١م)، ولكنها لم تعلن هذا أو تبديه، بل قامت بتسريب شفرة قديمة لها إلى اليابانيين ثم استخدمتها للحديث عن ضربة قاصمة يستعد الأسطول الأمريكي للقيام بها؛ لتدمير الأسطول الياباني تمامًا، ولم يكن هذا حقيقيًّا، ولكن إنجلترا كانت تحتاج بشدة إلى دفع أميريكا للحرب؛ حتى تربح حليفًا قويًّا في مواجهة ألمانيا واليابان.. ولقد نجحت لعبتها بالفعل إذ بادر اليابانيون بشن هجوم بيرل هاربور على الأسطول الأمريكي متصورين أنها ضربة وقائية لمنعه من تدمير أسطولهم مسبقًا، ولم يتصوَّروا لحظة، أنهم بهذا ينفِّذون المخطَّط الإنجليزي لدفع أمريكا إلى الدخول في الحرب، والذي كان السبب الرئيسي في هزيمة اليابان بعدها بأربع سنوات.. في تلك الفترة كان الألمان قد ابتكروا آلة كاتبة أطلقوا عليها اسم (اينجما) أو اللغز، ولقد كانت من أبرع وأقوى تقنيات التشفير التي ابتكرت في ذلك العصر كله، ولقد كانت عبارة عن آلة كاتبة تستخدم أقراصًا دوَّارة، لها ترتيب مخالف للحروف العادية؛ بحيث يقوم أحدهم بطبع رسالة مباشرة على الآلة فتسقط أحرفًا مختلفة على الورق، كأن تضغط مثلًا حرف الألف فتطبع الآلة حرف صاد أو تضغط رقم واحد فتطبع هي حرف فاء مثلًا، وكان على مستقبل تلك الرسالة أن يستخدم آلة مماثلة، ولكنها تقوم بعمل عكسي بوساطة أقراص دوَّارة أيضًا، فيكتب ما وصله من حروف لتطبع له الآلة رسالة واضحة مقروءة بالأحرف والأرقام الصحيحة.. الفكرة كانت عبقرية ولم ينجح كل خبراء الحلفاء في كشفها حتى الأشهر الثلاثة الأخيرة قبل سقوط الرايخ الثالث.. وربما يحتاج تاريخ التشفير إلى كتابٍ كاملٍ لشرحه وليس مجرَّد جزءٍ من مقال، ولكن يكفي أن نقول إن عصر الكمبيوتر جعل حتى الرسائل بين الأفراد العاديين مشفرة رقميًّا على نحوٍ ربما تعجز أجهزة كمبيوتر أخرى عن حله، ولهذا فيمكننا الانتقال إلى وسيلة أخرى أو سلاح آخر في حرب التقنية..
فقديمًا، وحتى الحرب العالمية الثانية، كان التنصُّت على بعض الجواسيس يحتاج إلى استئجار شقة مجاورة لهم، وعمل فتحات دقيقة في الجدار، وزرع ميكروفونات كبيرة في فتحات صناعية، ثم وبعد الحرب العالمية الثانية، صارت هناك أجهزة تنصُّت صغيرة في حجم عملة معدنية عادية وممغنطة أيضًا بحيث يمكن زرعها أسفل مائدة أو أعلى باب أو في أي ركن خفي وأحيانًا في سماعة الهاتف.. ومع التطوُّر المستمر للتقنية صارت تلك الأقراص أصغر وأصغر وأصغر.. ثم تطوَّرت التقنية أكثر ولم يعد هناك داع لزرع أي شيء خاصة، وأن حرب التقنية تضم أيضًا التقنية المضادة فأنت تبتكر شيئًا فيبتكر عدوُّك مضادًا له وتسعى أنت لابتكار مضاد للمضاد وهكذا.. وبلا نهاية.. فلقد تم ابتكار كواشف أجهزة التنصُّت التي تكشف كل ما يتم زرعه في المكان، وكان لا بُدَّ من نقل الحرب إلى المستوى الثالث.. وبهذا تم ابتكار ما يُعرَف باسم الميكروفون البندقية (Gun mice) وهو جهاز ميكروِفون مزوَّد

بطبق لاقط ذي حساسية كبيرة بحيث يمكنه استقبال والتقاط الأصوات من بعيدٍ، ودور الطبق اللاقط هنا هو استبعاد وعزل كل الأصوات الأخرى المحيطة، في محاولة لتنقية الصوت المستهدف بقدر المستطاع.. ولكن، وكالعادة ظهر الكمبيوتر وظهرت الرقميات وتطوَّرت التقنيات تطوُّرًا غير مسبوق، فصار هناك ما يُعَرف بميكروفون الليزر (Laser Mic) وهو عبارة عن شعاع دقيق من الليزر موصول بجهاز كمبيوتر دقيق، كل دور الشعاع هو أن يمس الجدار فحسب فينقل كل ترددات الصوت التي تحدث خلفه، ومهمة الكمبيوتر هي استقبال الترددات العائدة عبر شعاع الليزر، وفصلها وتنقيتها بحيث يمكنك أن تجلس في شقة مطلة على النيل، وتستمع بكُلّ وضوح إلى ما يدور خلف نافذة مغلقة على الجانب الآخر من النيل!!.. هكذا.. وبكل بساطة.. أما بالنسبة للتصوير فحدِّث ولا حَرَج.. قديمًا كان الجواسيس يتسلَّلون إلى المواقع الحسَّاسة مع كاميرات ضخمة وعدسات أضخم لالتقاط بعض الصوَّر العسكرية، ثم صارت الكاميرات أصغر، وكذلك العدسات ونشأ التصوير الجوي.. وفي مرحلة الحرب العالمية الثانية، تم ابتكار كاميرات شديدة الصغر تستخدم أفلامًا دقيقة للغاية ذات حساسيات عالية لنقل الصور والوثائق على ما يعرف بالميكروفيلم وهو في حجم حبة عنب متوسِّطة، وكان تهريبه وإيصاله إلى الطرف الآخر هو مشكلة المشاكل، وبسببها ظهرت عشرات الابتكارات والأفكار، وبسببها أيضًا سقط عشرات الجواسيس.. "إيلي كوهين" (٢٦ ديسمبر ١٩٢٤ – ١٨ مايو ١٩٦٥م) ذلك الجاسوس الإسرائيلي الذي عاش لسنواتٍ في سوريا تحت اسم كامل أمين ثابت كان يتخفى تحت مهنة تاجر أثاث يقوم بتصدير قطع الأثاث النادر والجيد إلى أوروبا، وبعد إلقاء القبض عليه تبيَّن أن قطع الأثاث تلك كانت تحوي فجواتٍ سِرية تُوضَع داخلها أفلام الميكروفيلم التي كان يلتقطها عبر آلة تصوير دقيقة مخبأة في قداحته، بحيث يتسلَّمها وكيله المزعوم في أوروبا والذي كان عميلًا إسرائيليًّا آخر في الواقع.. ولكن تقنية التصوير وإرسال الصور تطوَّرت مثلها مثل أي تقنية أخرى، وأصبحت آلات التصوير المدمجة في أقلام وولاعات وحتى المناظير الشمسية العادية متاحة للبيع في متاجر أوروبا وأمريكا للمواطن العادي والبسيط، أما نقل الصور فصار يتم عبر تقنية رقمية تُعرَف باسم إستجنوجراف (Stegnography) باعتبار أن الصور الرقمية في طبيعتها هي أصلًا مجموعة من الأرقام والمعادلات، ويمكن دس مجموعة أخرى داخلها تحوي صورًا مختلفة لا تظهر لمن يطالع الصورة الأصلية ما لم تكن لديه الشفرة المناسبة لاستخراج الصورة المزروعة داخل صورة أخرى أو المعلومات المخبأة داخل صورة رقمية ما.. التقنية إذًا تتطوَّر على نحوٍ متسارع للغاية بحيث تصعب ملاحقتها إلا لمن تهتم مهنتهم أو يقتصر عملهم على هذا، وبخاصة أنهم ما إن يمكنهم كشف تقنية ما وإيجاد المضاد لها حتى تكون هناك تقنيات أخرى قد ظهرت إلى الوجود، وخرجت إلى النور وعليهم

ملاحقتها أيضًا.. السؤال الذي يطرح نفسه بعد كل هذا هو: كيف يمكن الحفاظ على الأسرار في ظِلّ وجود كل تلك الجيوش التي تتطوَّر بسرعة الصاروخ في عالم غلبت عليه التقنية الرقمية؟!.. الجواب بكل بساطة هو عدم كشف الأسرار نفسها وحمايتها بقدر الإمكان فكل ما ذكرناه هنا هو وسيلة نقل المعلومة فإن لم يحصل عليها العدو فلن يكون هناك من سبيل لنقلها.. أما كيف يمكن الحفاظ عليها؟!.. فهذا سؤالٌ آخر.. وحديثٌ آخر بالتأكيد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(٥)

باللون الأحمر

في العقد الأوَّل من القرن الحادي والعشرين، وفي واحدة من بلدان أوروبا الشرقية التقى رجلا مخابرات إيرانيان بجماعة إرهابية وتبادلت المجموعتان حقيبتين، الأولى كانت تحوي سبعة ملايين ونصف مليون دولار أمريكي، والثانية كانت أصغر حجمًا، التقطها رجلا المخابرات وفحصا محتوياتها في سرعة ثم أغلقاها وانطلقا بها مباشرة إلى المطار؛ ليستقلا الطائرة إلى طهران وهما يشعران أنهما قد فازا بكنز أريقت من أجله أنهارًا من الدم على مدى عقود.. فداخل تلك الحقيبة الصغيرة لم يكن ذلك الكنز سوى قنينة صغيرة تحوي عشرة سنتيمترات مكعبة من سائل أحمر اللون ثقيل القوام المفترض أنه ذلك الحلم أو الأسطورة التي سعى الملايين خلفها لعقود.. الزئبق الأحمر.. وقبل أن يسرح بِكُم الخيال بعيدًا، وقبل أن ترسم أذهانكم صورًا وتروي عقولكم حكايات، لا بُدَّ وأن نكمل أن رجليّ المخابرات الإيرانيين وخلفهما جهاز مخابراتهما كله قد وقعوا في هذه العملية ضحايا خطة نصب دولية مبتكرة، استندت إلى أسطورة لم تثبت صحتها أبدًا حتى لحظة كتابة هذه السطور، على الرغم من كل ما يحاك حولها من قصص وروايات وخيالات.. والواقع أنه هناك ملايين في أركان العالم الأربعة يؤمنون وبشدة بأنه هناك ما يسمى بالزئبق الأحمر.. ولأنه تحوَّل إلى أسطورة فالكل ينسب إليه قدرات خرافية في العديد من المناحي من تسخير الجن وجلب الثروات وحتى صناعة الأسلحة النووية والسفر إلى مجرات بعيدة.. وككل الأساطير يصعب كثيرًا تحديد متى نشأت، ولا من أين انبعثت، ولكن بما أن اسم الزئبق الأحمر هو مرادف لدى الكل للزئبق الفرعوني، يمكننا أن نعود بالقصة إلى أربعينيات القرن العشرين، عندما تم كشف مقبرة القائد الفرعوني آمون – تف – نخت وهو أحد كبار قادة الجيش المصري في الأسرة السابعة والعشرين ويقال أنه القائد الذي صد غزو الفرس لمصر، وأنه عند موته تم تحنيطه بسرعة وداخل تابوته بسبب وجود اضطرابات سياسية واجتماعية في تلك الحقبة.. المهم أن الأثري المصري زكي سعد قد عثر أسفل المومياء في داخل التابوت على زجاجة تحوي سائلًا لزجًا بنيًّا مائلًا للاحمرار، وتلك الزجاجة ما زالت محفوظة في وعاء زجاجي يحوي شعار الجمهورية في متحف مدينة الأقصر حتى الآن.. ومنذ كشف تلك الزجاجة، بدأ الحديث عن الزئبق الأحمر الفرعوني وقدراته المدهشة والذي يتسع انتشاره يومًا بعد يوم، وتقول وثائق مصلحة الآثار أن العلماء السوفيت الذين تواجدوا بكثرة في مصر في حقبة الستينيات قد قاموا بدراسة ذلك السائل حتى جاء عام ١٩٦٨م عندما نشر الصحفي الإنجليزي "جوين روبرتس" تقريرًا سريًّا كان قد أعدَّه مدير الكي

جي بي السابق "بوجيني" والذي صار بعدها وزير خارجية الاتحاد السوفيتي ملخصه أن السوفيت قد كشفوا في وكالة دوبنا للأبحاث النووية مادة تبلغ كثافتها ثلاثة وعشرين جرامًا وهي أعلى درجة كثافة أمام أية مادة أخرى، حيث أن البلوتونيوم النقي ذاته تبلغ كثافته عشرين درجة فحسب مما يعني أن تلك المادة يمكن استخدامها كبديل فعَّال للبلوتونيوم في التخصيب النووي، وأن الجرام الواحد منها قد يساوي ثروة.. من هنا علم الكل بأمر تلك المادة وبالزجاجة الموجودة منها في مصر، وتبلبلت أذهان العديدين مما حدا بالرئيس جمال عبد الناصر آنذاكٍ إلى إيقاف الأبحاث حول تلك المادة، على الرغم من أن تقرير بوجيني لم يربط صراحة في تقريره ذلك بين المادة المكتشَفَة عالية الكثافة، وبين الزجاجة الموجودة في مصر والتي أكَّدَت تقارير الباحثين السوفييت أنها لا تحوي أيَّ زئبق على الإطلاق، بل على بعض المواد المستخدمة في تحنيط القائد الفرعوني آمون – تف – نخت ووصفوا محتوياتها بدقة بأنها تتكوَّن من ملح النطرون ونشارة الخشب وصمغ الراتنج، وبعض الدهون العطرية وألياف الكتان والزنتلينا وبسبب أن التوابيت الفرعونية تُغلَق بإحكام حدثت عملية تفاعُل عبر آلاف السنين نتج عنها لزوجة السائل ولونه المائل للاحمرار.. وعلى الرغم من ذلك، انتشرت شائعة أو أسطورة الزئبق الأحمر الفرعوني على نطاق واسع للغاية ولم تتوقَّف أو تتراجع حتى لحظة كتابة هذه السطور بل صارت أعمق في العقول وأكثر انغماسًا في الأحلام بعد أن صدَّق الملايين أنها تستخدم في تسخير الجن الذي يمكنه أن يحقق لهم كل أمنياتهم ويرشدهم إلى كل خفَيٍّ من كنوز الأرض.. وفي عام ١٩٩٥م نشرت الصحف المصرية عمَّن أطلق على نفسه لقب "المشعوذ التائب" وهو حامد آدم الذي قال أثناء التحقيقات التي أجريت معه أمام النيابة بالنَّص: «هذه حقيقة وليست خيالًا، وأن الجان يطلب من كل مشعوذ أن يحضر له الزئبق الأحمر الذي يتغذى عليه ويطيل في عمره».. وقال أيضًا: إن الزئبق الأحمر لا يكون له أي تأثير على الجان إلا إذا حصلَ عليه عبر بشري فقط، فإذا ما أحضر البشري له الزئبق الأحمر أغدق عليه الملايين وأموالًا لا حصر لها، ولقد نجح ذلك المشعوذ في خداع المئات وحصل منهم على أموال طائلة دون أن يسأل أحدهم نفسه لماذا يحتاج إلى أموالهم لو أن الجن يغدق عليه الملايين كما يقول؟!.. بعدها بسنوات حدثت قضية نصب أخرى كادت تسيء إلى العلاقات المصرية السعودية، عندما سمع طالب ثانوي من أحد المشايخ عن قصة الزئبق الأحمر، وكان والده يعمل في المملكة العربية السعودية، فاتفق مع أستاذه للكيمياء على تركيب مادة ذات لزوجة كبيرة وتميل إلى الحمرة، ولقد نجح في بيع كمية منها بالفعل قبل أن يكشف المشترون الخدعة، فتم القبض على الطالب ومدرس الكيمياء ومحاكمتهما بتهمة النصب والاحتيال.. وربما كانت تلك المادة اللزجة هي نفسها التي خدعت رجلي المخابرات الإيرانية، كما ذكرنا في بداية الموضوع..

تلك الحادثة وقعت في تسعينيات القرن العشرين، ولكن العديدين ما زالوا يسعون خلف الزئبق الأحمر ويحلمون بامتلاكه.. وينصبون باسمه أيضًا.. والأسطورة ليست بسبب وهم تسخير الجن فحسب، ولكنَّ لها جذورًا عِلمية أيضًا؛ فأحد العلماء الروس الآن يقول الكثير عن الزئبق الأحمر ويصفه بأيوديد الزئبق أو أيودات الزئبق، وعلى الرغم من أنه لا يمتلك فمتوجرام واحد منه أو يجري عليه ولو تجربة واحدة أو حتى يراه بالعين المجرَّدة، إلا أنه يؤكِّد أنه باستخدام الزئبق الأحمر يمكن صنع قنبلة نووية تبلغ عشرة أضعاف قوة تفجير قنبلة هيروشيما في حجم برتقالة!!.. ولا أحد يدري من أين جاء ذلك العالم بكل هذه الثقة التي دفعَتْ الكثير من الدول وحتى التنظيمات الإرهابية للسعي خلف ذلك الزئبق الأحمر المزعوم والتقاتل للحصول عليه وإراقة أنهار الدم من أجله.. ففي جنوب أفريقيا انتبه لِصُّ سيارات إلى وجود سيارة حديثة متوقفة إلى جانبي الطريق وإحدى نوافذها مفتوحة، وبسرعة كان ينطلق بها مبتعدًا في طريقه إلى ورشة سيارات مسروقة لبيعها وتفكيكها مقابل بضع مئات من الراند وهو العملة المستخدمة هناك، ولكن قبل أن تتم الصفقة، وعندما تم فتح حقيبة السيارة فوجئ البائع والمشتري بجثة ممزقة تمامًا داخل الحقيبة ومطلية باللون الأحمر وكانت صدمة رهيبة لكليهما والجثة كانت لعالم إنجليزي قضى عدة سنوات من عمره في البحث عن الزئبق الأحمر واختبار خواصه، وربما لهذا السبب أساسًا سافر إلى جنوب أفريقيا حيث تكثر مناجم الماس والبلوتونيوم.. ولقد أشيع أيامها أن الرجل قد قُتِلَ لأنه حصل بالفعل على عينة من الزئبق الأحمر ورفض بيعها، ولكن الشائعة لم تخبرنا مَن فعلها وأين هي عينة ذلك الزئبق المزعوم الآن؟!.. ومَن أفاد منها؟!.. والحكايات والألاعيب لا تنتهي في هذا المجال، فلو تصفَّحت شبكة الإنترنت ستجد عشراتٍ من أفلاك الفيديو والمقالات التي تشرح كيفية استخراج الزئبق الأحمر من ماكينات حياكة سنجر القديمة، وسيدفعك هذا إلى تساؤل لم يدر أبدًا بخُلدِ مَن سقطوا ضحية هذا.. وهو كيف يمكن أن تحوي ماكينة قديمة ولو جرامًا واحدًا من الزئبق الأحمر الذي يساوي عدة آلاف من الدولارات بثمن بخسٍ كهذا؟!.. ووراء ما حدثَ في إحدى الدول العربية قِصةٌ طريفة نوعًا وتعدُّ حالًة من الاحتيال الذي لا يعاقب عليه القانون.. ففي تلك الدولة لاحظَ مدير مبيعات الشركة أنه لديه مخزون كبير من ماكينات الحياكة القديمة التي لم يعد يطلبها أو يقبل عليها أحد بعد أن أنتجت الشركة طرازات أحدث وأكثر تطورًا، وبينما يمر في قسم الصيانة والإصلاح لاحظ أن الماكينة تحوي نوعًا من الزيوت التي تعمل على تليين الحركة، له لزوجة كبيرة ولون يميل إلى الحمرة فتفتق ذهنه عن لعبة خبيثة، وبدأ في إشاعة أن تلك الماكينات القديمة تحوي الزئبق الأحمر.. وخلال أسبوع واحد فقط تهافت الآلاف على شراء الماكينات القديمة مما أدهش الباعة وأدَّى إلى رفع سعرها ونفاد كل الكمية التي تملأ المخازن.. وأكاد أجزم هنا أن تلك الماكينات لم

تستخدم للحياكة مرة واحدة، وإنما تم تفكيكها وتمزيق أوصالها بغية الحصول على قطرات الزئبق الأحمر المزعوم داخلها.. وأكاد أجزم أيضًا بأن حالة الإحباط والغضب التي أصابت ضحايا تلك الخدعة جعلتهم ساخطين بشدة على مُطلِق الشائعة، ولكنهم ما زالوا يواصلون البحث في نهمٍ وإصرارٍ عن الزئبق الأحمر الذي صار شبيهًا بإكسير الحياة أو نبع الخلود الذي وردَ في أسطورة جلجامش.. المدهش أن الأسطورة قد تعاظمت حتى سقطت دول وأنظمة كبيرة فيها، وبخاصة بعد سقوط الاتحاد السوفيتي في بداية تسعينيات القرن العشرين عندما أشيع (أيضًا) أن العلماء الروس قد نجحوا في تهريب كميات من الزئبق الأحمر، وسيقومون بعرضها للبيع مع طرق الإفادة منها.. هنا تهافتت أنظمة عديدة على العرض، وبدأ مزاد غير معلن لمن يدفع أكثر ثمنًا لجرام الزئبق الأحمر.. ولأن بعض العلماء السوفيت الفعليين كانوا وراء اللعبة إما بإرادتهم وطمعهم أو مدفوعين من أجهزة مخابراتهم فقد اكتسبوا مصداقية كبيرة لدى المشترين الذين دفعوا الملايين؛ لشراء كيماويات لزجة باللون الأحمر.. ويعود عدد الضحايا الكبير لخدعة الزئبق الأحمر إلى أمرين.. أوَّلهما الانتشار الكبير والطويل لموضوع الزئبق الأحمر وقدراته فوق الطبيعية إلى درجة منحه مصداقية زائفة صار التشكيك فيها صعبًا.. وثانيهما هو حُلم القوة والسيطرة لدي كل الأنظمة والتنظيمات وحتى الكيانات الإرهابية وكثير من بسطاء الناس الطامحين إلى الثروة والقوة دون بذل جهدٍ كبيرٍ لبلوغهما.. ثمانون عامًا منذ اكتشاف تلك الزجاجة أسفل مومياء القائد آمون – تف – نخت وحتى لحظة كتابة هذه السطور تكبر وتتعاظم أسطورة الزئبق الأحمر الفرعوني وامتزج فيها الخيال بالحلم بالخداع بالكذب ليشترك كل هذا في صنع وصياغة واحدة من أكبر وأشهر وأقوى أساطير الزمن الحديث.. أسطورة ذلك المعدن السائل الذي طالما بهرَ الناس منذ آلاف السنين، وما زال يبهرهم، ولكن هذه المرّة.. باللون الأحمر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(٦)

ليس كل ما يؤذي العباد
من فعل زبانية الموساد

السفير المصري تم اختطافه في (العراق)

وبسرعة بدأ الكل يؤكِّد أن هذا ليس من فِعل العراقيين أو تنظيم القاعدة أو كل من أعلن مسؤوليته عن الحادث، وإنما هو من فعل الموساد!!..

قبلها وقعت أحداث الحادي عشر من سبتمبر وانهار برجا التجارة العالميان في نيويورك فأسرعنا نتناقل بيننا أن الموساد وراء ما حدث وأنه فعلها لتوريط العرب وإفساد العلاقة بينهم وبين الأمريكيين، وأن كل اليهود العاملين في المكان لم يحضروا يوم الكارثة و... و...

وفي كل الأحوال ليس لدينا دليل واحد على ما نقول أو على ما نوجهه من اتهامات إلا ما وقر في أعماقنا وقلوبنا وعقولنا من أن الموساد جهاز مخابرات قوي يدير الدنيا بأطراف أصابعه دون أن ننتبه إلى أن هذا يعني في الوقت ذاته أننا أصبحنا بكل أجهزة مخابراتنا مجرد عرائس ماريونيت أو قطيع من الغنم التائه الضعيف الذي لم يعد له من دور في المنطقة كلها سوى أن يتبع ما يقوده إليه الموساد!!..

ولست هنا أنكر قوة الموساد كجهاز مخابرات نشط في المنطقة يمتلك خبرةً لا بأس بها في أعمال التآمر والتخريب؛ فتاريخ أجهزة الأمن والاستخبارات الإسرائيلية يبدأ منذ العقد الثاني من القرن العشرين، وقبل ميلاد إسرائيل نفسها وبالتحديد عندما أصبحت فلسطين تحت الانتداب البريطاني وتحوَّلت إلى مصدر جذب لليهود من كل أنحاء أوروبا حتى بلغ عددهم عام ١٩١٩م ٦٥.٣٠٠ يهودي، ثم لم يلبث الرقم أن ارتفع ليصل إلى ٤٠٠٠٠٠ في عام ١٩٣٩م أي ما يساوي ٢٨.٥٪ من تعداد فلسطين..

في تلك الفترة عندما بدا موقف بريطانيا مزدوجًا وهي تحاول تحجيم الهجرة اليهودية إلى فلسطين تحت ضغط المصالح البريطانية في المنطقة العربية، في نفس الوقت الذي تستعين فيه بالوحدات اليهودية؛ للمحافظة على النظام..

وفي عام ١٩٤٠م ذروة الحرب العالمية الثانية شكَّل البريطانيون وحدة كوماندوز يهودية عرفت باسم الهاجاناه، وكان معظم أفرادها ينتمون إلى وحدة خاصة بهم تدعى "البالماخ" أو جماعات الضرب بالعربية، وسرعان ما

بدأ اليهود تنظيماتهم السرية الخاصة كالمعتاد لتتحوَّل الهاجاناه إلى جيش سري له فرع مخابراتي يدعى (شاي) وهو اختصار لكلية شيروت يدعوت أو خدمة المعلومات باللغة العبرية..

وفي تاريخهم.. ووفقًا لموسوعة الجواسيس (Spy book)، يعتبر الإسرائيليون أن الشاي هي أول وكالة مخابرات إسرائيلية أعلنت قبل إعلان دولة إسرائيل نفسها في ١٤ مايو ١٩٤٨م..

وفي يوليو ١٩٤٨م أنشأ الإسرائيليون خدمة مخابراتهم الحربية المعروفة باسم "أمان"، وكذلك خدمة الأمن الداخلي "شين بيت"، مما استدعى بالتبعية إلغاء الشاي وإيقاف نشاطها..

وجهاز أمان هذا هو المسؤول عن عملية "لافون" التي حاول الإسرائيليون بوساطتها إفساد العلاقة بين مصر والولايات المتحدة الأمريكية عن طريق نسف بعض المصالح الأمريكية في القاهرة والإسكندرية؛ وهو ما تم كشفه فيما بعد، وأصبح فضيحة كبرى عُرفَت أيضًا باسم "فضيحة لافون"..

وفضائح "أمان" لم تبدأ مع تلك العملية، وإنما بدأت مع إنشاء الجهاز نفسه إذ حوكم "عيزرا بعري" -أول رئيس له- عسكريًا؛ لتورُّطه في عمليات تعذيب وإعدام غير قانونية ضد إسرائيليين مُشتبَه في تورُّطهم في الخيانات..

ومع مَقْدِم عام ١٩٥١م كانت أجهزة المخابرات الإسرائيلية في حالة فوضي تامة عندما عاد منسق الاستخبارات في وزارة الخارجية من رحلة إلى الولايات المتحدة الأمريكية حاملًا أنباء عن مولد وكالة المخابرات المركزية CIA مع اقتراح بإنشاء جهاز مماثل يتبع رياسة الوزراء شخصيًّا.. وهكذا وُلِدَ الموساد..

وكلمة "موساد" هي اختصار لعبارة عبرية (المؤسسة المركزية للمخابرات والمهام الخاصة)..

ولم تمض سنوات قليلة حتى اشتهر الموساد بأنه جهاز وقح لا يتورَّع عن القيام بكل الأعمال القذرة، كالخطف والاغتيال والقيام بعمليات عنيفة وحشية..

وفي عام ١٩٥٧م أنشأ الموساد مكتبًا خاصًا لتبادُل المعلومات داخل وزارة الدفاع الإسرائيلية، وتم إنشائه في سرية بالغة حتى إن "عيزرا هاريل" أعلى ضابط مخابرات إسرائيلي في تلك الفترة لم يعرف بأمره إلا بعد عام كامل..

وأسوأ ما يفعله الموساد حتى يومنا هذا هو أن يتجسَّس على الصديق قبل العدو، ومن أشهر ما فعلته عملية "جوناثان بولارد" عام ١٩٨٥ والذي جنَّدَه

الإسرائيليون للعمل لحسابهم مما أحدث ضررًا هائلًا في العلاقات الإسرائيلية الأمريكية، أدى إلى تمزُّق اللوبي اليهودي في أمريكا أيامها..

وفي تقرير للمخابرات الأمريكية عام ١٩٧٩م أكَّد الأمريكيون أن المخابرات الإسرائيلية حاولت اختراق القنصلية الأمريكية بالقدس من خلال موظف كتابي كان على علاقة بفتاة مقدسية رتبت لتلفق ضده فضيحة إجهاض في محاولة لتجنيده بعد أن فشلت علاقتها به في الحصول على ما لديه من معلومات أمنية وسياسية..

ولقد تحدَّث التقرير نفسه عن زرع أجهزة تنصُّت في مكاتب ومنازل الأمريكيين في إسرائيل، بالإضافة إلى ثلاث محاولات فاشلة لتجنيد بحَرِيَّيْن أمريكيين بمقابل مادي على نحوٍ فَجّ..

والواقع أن جهاز المخابرات الإسرائيلي الموساد لم يكن يحظى أبدًا بهذه الشهرة في الأوساط العربية والعالمية حتى قام بعمليتين أساسيتين استغلهما بشكل إعلامي جيد؛ ليضفي على نفسه هيبة خاصة وسُمعة مخيفة في قلوب الجميع..

عملية “عنتيبي” عام ١٩٧٦م، عندما هبطت فرقة كوماندوز تتبع الموساد في مطار عنيتبي في أوغندا على نحوٍ مفاجئ؛ لتقوم بتحرير سبعة وتسعين رهينة احتجزهم الفدائيون داخل طائرة هناك..

ولقد تمت العملية بسرعة ودقة وعلى نحوٍ مباغتٍ وفي وجود رئيس أوغندا السابق عيدي أمين، نظرًا لضعف إجراءات الأمن في المطار مما جعل وكالات الأنباء تتحدث عن الأمر وتبالغ في وصفه وتقديره، خاصةً وأن معظمها مملوكٌ ليهود مواليين لإسرائيل..

العملية الأخرى -والتي تمت على نطاق زمني أوسع- كانت تعقب كل منفذي ومخططي عملية ميونيخ من الفلسطينيين واغتيالهم مع عائلاتهم!!..

استثمار الحدثين إعلاميًا أضفى على الموساد سُمعة مخيفة، ونجح في أن يغرس في قلوبنا نحن العرب شعورًا عجيبًا بخشيته وقوته والمبالغة في تقييم قدراته..

والعجيب أن الإسرائيليين أنفسهم لا يشعرون بهذا؛ ففي كتابهما (كل جاسوس أمير) الصادر عام ١٩٩١م كتب المؤلفان (دان رافيف) و(يوسي ميلمان): «لقد فقدَ الإسرائيليون الكثيرَ من ثقتهم في خدماتهم السرية على الرغم من أنه من المفترض حصولهم على نومٍ هادئٍ؛ لأنهم تحت حماية الموساد والشين بيت وأمان، ولكنهم اهتزوا وانقلبوا بسبب شكوكهم العميقة حول جماعة المخابرات وكفاءتها..»..

فالفشل المرتبط بالموساد أكثر مما ينبغي، ولكن جرت العادة ألا يكشف أي جهاز مخابرات أخطاءه أو غسيله القذر كما نقول هنا، ولعل أكبر إشارة لفشله هو اغتيال إسحاق رابين رئيس الوزراء الإسرائيلي السابق على يد متطرف ديني يهودي اخترق الصفوف ونجح في الوصول إليه مباشرةً..

انتصارنا في حرب أكتوبر ١٩٧٣م دليلٌ آخر على فشل المخابرات الإسرائيلية التي أكَّدت تقاريرها أن الحرب خيارٌ غيرُ مطروحٍ في مصر وسوريا قبل ساعات قليلة من الضربة الفعلية..

الشيء الأهم، والذي لا يدركه العامة، هو أن القاعدة الأساسية في عالم المخابرات تُحتِّم ظهور الحقيقة في وقتٍ ما وإن طال الزمن، ولو أن الموساد قادر على تنفيذ كل هذه العمليات في كل مكان في العالم؛ فهذا يعني الكثير من التخطيط والإعداد وتجنيد العيون والجواسيس والعملاء مما يضاعف من احتمالات انكشاف السر أكثر وأكثر..

وقانون الوثائق الإسرائيلي نفسه يحتِّم كشف الأمور ذات يوم..

وإسرائيل لن تخاطر بمواجهة الولايات المتحدة لو توصلت الأخيرة إلى أن الأولى كانت مسؤولة عن أحداث سبتمبر الأسود كما يطلقون عليه..

المشكلة الحقيقية لا تكمن في الموساد، ولكن في عقولنا نحن..

في ضعف ثقتنا بأنفسنا ومبالغتنا في تصوُّر قوة الآخرين..

في إصرارنا على إقناع أنفسنا بأننا نعلم ما يحدث دون أن نمتلك دليلًا واحدًا عما نقول..

أو عما نشعر..

ونتخيل..

ونتصوَّر..

والتاريخ يحمل الكثير من وقائع فشل الموساد مع تساقُط جواسيسه الذين حاول زَرْعَهم في مجتمعنا العربي مثل "إيلي كوهين" الذي سقط في سوريا، و"باروخ مزراحي" الذي سقط في اليمن، ومدرب الخيول "لوتز" الذي سقط في مصر..

وما زال جواسيس الموساد يتساقطون حتى وقت قريب..

وما زلنا نحن -على الرغم من هذا- ننسب إليه كل مصيبة وكل كارثة..

وهذه هي الكارثة..

الحقيقية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(٧)

ورقة وقلم.. وجاسوسية

لا يمكن بحالٍ من الأحوال فَهمُ تاريخ وملامح عالم التخابر والجاسوسية دون دراسة ذلك السيل من الكتب والروايات التي تدور حول علم الجاسوسية السري والتي تتنوَّع مصادرها واتجاهاتها ورؤيتها..

وكتب التخابر والجاسوسية تختلف كثيرًا في مصادرها..

فهناك كتب علمية حول علم التخابر والتجسس تتحدَّث عن تاريخه ونشأته ونوعياته وأهدافه.. وبعضها يتحدَّث عن تقنياته وفنونه.. وعملياته..

وهنا يأتي دور كتابات الجاسوسية التي تنسب لثلاث فئات..

كتب يكتبها رجال مخابرات سابقون يروون فيها ما يتاح نشره عن عمليات شاركوا فيها أو أشرفوا عليها أو علموا بأمرها بحكم مواقعهم ومناصبهم السابقة..

وكتب يكتبها عملاء استعانت بهم أجهزة مخابرات خلال عملية بعينها لتحقيق انتصار استخباراتي على العدو..

وكُتب يكتبها جواسيس سابقون قاموا بعمليات فريدة لحساب أجهزة مخابرات، ونجحوا في مهامهم أو حتى سقطوا خلالها وقضوا فترة عقوبتهم أو تم تبادُلهم عبر عملية تبادُل جواسيس روتينية فكتبوا يروون قصتهم في كتاب..

الفئات الثلاث لهم كتب عديدة تكتظ بها أرفف المكتبات إلى جوار فئة رابعة هي الأكثر رواجًا بين الكل..

الروايات الخيالية المثيرة التي ترسم صورة أسطورية لعالم المخابرات..

أو حتى تهاجمها..

وفي ستينيات القرن العشرين، وعقب حرب يونيو ١٩٦٧م، ظهر في الأسواق المصرية أوَّل كتاب يروي قصة جاسوسية حقيقية للكاتب ماهر عبد الحميد، تحت عنوان (قصتي مع الجاسوس) ولاقى بالطبع رَوَاجًا كبيرًا، خاصةً وأن الصحف كانت قد نشرَتْ خبرَ العملية التي نجحت خلالها المخابرات المصرية في إسقاط جاسوس خطير لإسرائيل من خلال الكاتب نفسه..

بعدها صار ماهر عبد الحميد كاتبًا استخباراتيًا ظهرت له عدة كتب عن عمليات المخابرات مثل (جاسوس فوق البحر الأحمر) و (المفاجأة) وغيرها..

ثم نشر "وولفجانج فان لوتز" الجاسوس الإسرائيلي من أصل ألماني، مذكراته تحت عنوان (جاسوس الشمبانيا) والتي روى فيها كيف عمل كجاسوس في مصر تحت ستار أنه ألماني والعلاقة بين الإسرائيليين والألمان دومًا متوترة.. ولقد ذكر لوتز في مذكراته كيف تم كشف أمره، وكيف أن ضابط المخابرات المصري الذي ألقى القبض عليه كان يعرف كتاب الشفرة ولقد التقطه مباشرة من بين كل الكتب في مكتبته، وكيف دفعه هذا إلى الاعتراف دون مواربة بعد أن أدرك أنهم يعرفون عنه كل شيء..

ثم سقط ضابط المخابرات الإسرائيلي "باروخ زكي مزراحي" في اليمن، وعبر به ضابط مخابرات مصري، الصحراء لتلتقطهما غواصة مصرية تنقلهما إلى مصر ليلتقي به الكاتب الصحفي الراحل عبد الفتاح الديب، ويظهر كتابه (باروخ في المصيدة)..

ثم جاءت القفزة الكبرى في ثمانينيات القرن العشرين، وبالتحديد في الثالث من يناير ١٩٨٦م، وفي عدد مجلة المصوِّر رقم ٣١٩٥، نشر الفصل الأوَّل من رواية رأفت الهجان لكاتبها الذي قلبَ كلَّ موازين أدب الجاسوسية صالح مرسي (١٧ فبراير ١٩٢٧ - ٢٤ أغسطس ١٩٩٦م)..

ورأفت الهجان هو الاسم الكودي لرفعت علي سليمان الجمال (١ يوليو ١٩٢٧ - ٣٠ يناير ١٩٨٢م) الذي تم زرعه في إسرائيل تحت اسم جاك بيتون مُحققًا أقوى عملية زرع استخباراتية في التاريخ، باعتبار أنه لم يتم كشفها سوى بعد سنواتٍ من وفاة بطلها الذي لم ينكشف أمره قَط، على عكس الأكاذيب الإسرائيلية على عكس الجاسوس الإسرائيلي إيلي حوفي كوهين الذي تم زرعة في سوريا في ستينيات القرن العشرين تحت اسم "كامل أمين ثابت" والذي سقطَ في قبضة المخابرات السورية، وتم إعدامه في ميدان عام عام ١٩٦٥م..

والقفزة التي قفزها صالح مرسي أو عم صالح كما كنا نخاطبه (رحمه الله) لم تكن في نشر عمل مخابراتي فحسب، ولكن في صياغته على نحوٍ أدبيٍّ بمشاعر دفَّاقة جعل العميل أو الجاسوس ينتقل من العالم ثنائي الأبعاد إلى عالم ثلاثي الأبعاد، وليضع ويصنع نمطًا جديدًا في أدب التخابر والجاسوسية الذي لم يعد بعدها مجرَّد مزيج من ورقة وقلم.. وجاسوسية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

(٨)

الحرب خدعة

مصطلح الحرب خدعة تم تداوله كثيرًا في السنوات الأخيرة كوسيلة لتبرير كل أنواع الغش والتدليس والخداع والتلاعب بمشاعر وانفعالات الناس كسلاح من أسلحة حروب الجيل الرابع.. ولقد استخدمه في الواقع قادة التنظيمات الإرهابية المعلنة والمستترة؛ لإقناع تابعيها بارتكاب أقذر وأحط الأفعال دون أن يدركوا عمق المستنقع الذي يغوصون فيه حتى أنوفهم.. ولكن الواقع أن الخداع في الحروب فن من أرقى وأبرع الفنون العسكرية التي عرفها التاريخ والتي كان لها الفضل كثيرًا في تغيير مساره.. وفي كتابة الأشهر (فن الحرب) يقول القائد العسكري الصيني من قبل الميلاد (صن تزو): إن الخداع هو الوسيلة الأمثل؛ لتحقيق النصر على العدو بأقل خسائر ممكنة.. وتاريخ الحروب ويؤكد مقولة "صن تزو" هذه حتى بعد قرون وقرون على وفاته.. ففي زمن الإسكندر الأكبر الذي وُلدَ عام ٣٥٦ ق.م في مدينة بيلا المقدونية وخلف والده فيليب الثاني المقدوني الشهير بالأعور على عرش البلاد عام ٣٣٦ق.م، وفي حربه مع الفُرس أدرك أنهم يفوقونه قوةً ولديهم جدار قوي من فرسانهم فلجأ إلى خدعة ذكية؛ إذ جعل قواته تنقسم إلى ثلاثة أقسام مقدمة واضحة وجناحين خفيين واتجه بمقدمته نحو جدار فرسان الفرس، ثم تراجع على نحوٍ دفعهم لمطاردته مما صنع فجوة بين صفوفهم برز عندها جناحاه وانقضًّا على تلك الفجوة ونجحا في اختراقها وبلوغ ملك الفرس "داريوس" الذي انكشف بعد مطاردة فرسانه لمقدمة الإسكندر، وأصابه الذعر؛ ففرَّ بحياته من أرض المعركة، وكان النصر للإسكندر وجيشه في معركة جوجامال ا.. أما في معركة هيداسباس في مايو ٣٢٦ق.م والتي جرت فيما يُعرَف الآن بالبنجاب في الهند نفَّذ الإسكندر خدعة عسكرية لامعة حملت خصمه على الوقوع في خطأ فادح.. فعندما وصل الإسكندر وجنوده إلى ضفة نهر هيداسباس، وجد أن الملك بوروس وجنوده قد سبقوه وأقاموا معسكراتهم على الضفة الأخرى للنهر؛ استعدادًا للتصدِّي لجيشه وكلما تحرَّك الإسكندر وجنوده صعودًا ونزولًا عبر النهر بحثًا عن نقطة مناسبة للعبور تبعهم رجال بوروس في تحفز؛ لذا فقد اتخذ الإسكندر مسارًا يوميًّا ثابتًا يتحرَّك فيه جنوده صعودًا ونزولًا حتى ضبطَ جنود بوروس إيقاعهم معه، وعندئذٍ سحبَ هو القسم الأعظم من رجاله خفية وترك كتيبة واحدة منهم تواصل إيقاع الحركة ثم ابتعد عنهم خلسة وعبر النهر مع فرسانه من منطقة بعيدة مستغلًا انشغال جنود بوروس بمتابعة حركة رجاله وانقضَّ عليهم من خلفهم بغتة وكان له النصر.. أما نابليون بونابرت (٥ أغسطس ١٧٦٩ – ٥ مايو ١٨٢١م) وبعد أن حمل أحد الجيوش النمساوية على الاستسلام في أولم ١٨٠٥م انسحب

الروس حلفاء النمساويين عبر نهر الدانوب؛ من أجل إعادة تنظيم صفوفهم ولجعل النهر حاجزًا بينهم وبين الفرنسيين، ومن أجل هذا تم تدمير كل الجسور فوق الدانوب، فيما عدا عددًا قليلًا تم تلغيمه بالمتفجرات التي يمكن تفجيرها فور محاولة الفرنسيين لعبورها.. وعندما اقتربت الجيوش الفرنسية من فيينا بدأت المفاوضات بين الطرفين، وفي الثالث عشر من نوفمبر وصلت وحدات جيش فرنسية متقدّمة تحت قيادة "خواكيم مورات" و"جون لان" إلى جسر تابور الذي كان يشرف عليه الضابط "أوزبيرج"، وهنا قام الجنود الفرنسيين بإخفاء أسلحتهم في حين عبر "مورات ولان" الجسر سيرًا على الأقدام وهما يتبادلان الأحاديث والضحكات وكأنهما ليسا في حالة حرب، وعندما وصلا إلى الجانب الآخر أحاط بهما الجنود النمساويون المرتبكون فطلبا منهم استدعاء القائد "أوزبيرج" متسائلين عما إذا كان قد علمَ بخبر نجاح مفاوضات السلام، وبينما يتم إبلاغ أوزبيرج، شغلَ بورات ولان الجنود النمساويين عن العبور البطيء للجنود الفرنسيين للجسر، وعندما وصل أوزبيرج نجح الرجلان في إقناعه بنجاح معاهدة السلام؛ فسمح للفرنسيين بعبور الجسر، وهنا أمكنهم السيطرة على الموقف ومنع تفجير الجسر واستخدامه لعبور جزءٍ كبيرٍ من الجيش. ولم يمض شهرٌ واحدٌ على هذا حتى تمكن الفرنسيون من تدمير الجيوش النمساوية الروسية في أوستيريلتز في أكثر الانتصارات النابليونية دهاءً وخداعًا.. أما الحرب العالمية الثانية، فهي مدرسة للخداع العسكري التي يمكن وضعها في موسوعة كاملة؛ ففي صيف ١٩٤٢م شن الألمان هجومًا على جنوب الاتحاد السوفيتي فيما عرف بعملية بارباروسا، واتجه تفكيرهم كله نحو احتلال ستالينجراد؛ باعتبار أنها رمز للزعيم الروسي السوفيتي - آنذاك – جوزيف فيسارينوفيتش ستالين (١٨ ديسمبر ١٨٧٨ – ٥ مارس ١٩٥٣م)، ولكن المدينة واجهتهم بمقاومة أسطورية عنيفة لم يتوقعوها أو حتى يتصوروها، ومع استمرار القتال وإصرار الألمان على الفوز بالغنيمة، استغل السوفيت هذا، واعتمدوا بشكلٍ أساسيٍّ على الإبقاء على اهتمام الألمان بغزو واحتلال المدينة، وتمكنهم بالفعل من احتلال تسعين في المائة منها، وقام السوفيت بنقل مجموعات صغيرة من جنودهم عبر نهر فولجا، مستغلًا انشغال الألمان بالمقاومة السوفيتية في المدينة، حتى فوجئ الألمان بأنهم مطوَّقون بالجيوش السوفيتية، وأن جيشهم السادس مُحاصَر داخل المدينة، وفشلت كل المحاولات الألمانية في توصيل المؤن والذخيرة لجنودهم المحاصرين؛ مما أجبر هؤلاء مع البرد والجوع ونفاد الذخيرة على الاستسلام للسوفيت، وكانت أوَّل وأكبر هزيمة مُذِلَّة تعرَّض لها الجيش النازي في الحرب العالمية الثانية.. أما أشهَر خدعة عسكرية آنذاكٍ فقد كانت خدعة ابتكرها واحدٌ من أشهر من عرفهم تاريخ الجاسوسية في زمن ما بعد الحرب العالمية الثانية، ولكن على صفحات الكتب وشاشات السينما وهو إيان فليمنج مؤلف ومبتكر شخصية جيمس بوند أو العميل ٠٠٧..

فبعد وقت قصير من اندلاع الحرب العالمية الثانية قدَّم الأدميرال البحري البريطاني "جون جودفري"، ومساعِدُه الشخصي "آيان فليمنج" مذكرةً أطلقا عليها اسم "عملية سمكة التاروت"، وكانت تحوي عدة خطط لخداع العدو، وكانت الخطة رقم ثمانية وعشرين منها تتحدَّث عن زرع وثائق مضللة في جسد شخص متوفٍّ وجعلها تقع في يد العدو.. وفي أكتوبر ١٩٤٢م قدَّم ضابط الاستخبارات البريطاني "تشارلز كولونديلي" نسخته المعدَّلة عن الخطة والتي اعتمدت على الحصول على جثة من إحدى مستشفيات لندن ثم ملء رئتيها بالماء وتوضع المستندات المطلوب نقلها للعدو في جيبها الداخلي، وتُلقَى في الماء بحيث تصل إلى أرض العدو.. في البداية تم رفض الخطة؛ باعتبار أنها غير قابلة للتنفيذ حتى قرَّر قائده، المغامرة بوضعها موضع التنفيذ، وأوكل الأمر لضابط الاستخبارات أيدين مونتاجو ليعمل على تطوير الخطة ووضعها موضع التنفيذ، وهنا تواصَل مونتاجو مع الطبيب الشرعي لمدينة لندن بنتلر بورشيس، وطلب مساعدته، وبالفعل في الثامن والعشرين من يناير ١٩٤٣م، اتصل بهم الطبيب الشرعي وأخبرهم بوجود جثة مناسبة للمتشرِّد "جليندو مايكل" الذي انتحر بتناوُل سم الفئران، ولقد تم إعداد الجثة وإلباسها زِيًّا عسكريًّا ودس كل ما يلزم في جيوبها، حتى تذاكر السينما وخطابات غرامية وهمية مع خطيبته، بالإضافة إلى إيصال شراء خاتم خطبة، ورسائل من والدٍ وهميٍّ، بالإضافة إلى رسالة شخصية من نائب رئيس الأركان العامة البريطانية إلى قائد المجموعة الأنجلو أمريكية في الجزائر وتونس تحت قيادة الجنرال أيزنهاور.. وفي الساعات الأولى من يوم ١٧ أبريل ١٩٤٣م، تم نقل الجثة داخل حاوية مملوءة بالثلج، وفي الساعة الرابعة من فجر ٣٠ أبريل، رمت غواصةٌ الجثةَ في الماء بالقرب من شواطئ إسبانيا التي كانت آنذاكٍ بلدًا محايدًا، ولكن تربطه علاقات بالمخابرات الألمانية النازية.. وفي صباح اليوم نفسه، عثرَ أحد الصيادين الإسبان على الجثة، وأبلغ السلطات وتم إبلاغ القنصل البريطاني رسميًّا بالأمر؛ فقام بدوره وِفقًا للخطة باستخدام شفرة مراسلات قديمة، يدرك البريطانيون أنها مكشوفة للألمان لإبلاغ إنجلترا، واستقبال رسائلها بالشفرة نفسها والتي تدعوه لاستعادة الجثة بأي ثمنٍ، وفي الوقت الذي نقلت فيه المخابرات النازية محتوى الوثائق لهتلر الذي طلبَ هو من موسوليني مضاعفَةَ الحراسة والدفاعات على جزيرتي سردينيا وكورسيكا مهما كلَّفَ الأمر، ونقل معظم القوات إليهما، اجتاح الحلفاء جزيرة صقلية في التاسع من يوليو بأقل خسائر ممكنة.. وفي مصر، في مرحلة ما قبل حرب أكتوبر ١٩٧٣م، كان الهدف الأساسي لدى مصر هو استعادة سيناء التي احتلها العدو الإسرائيلي عام ١٩٦٧م، ولكي يتحقَّق هذا الهدف، كان لا بُدَّ من حشدِ كلِّ الجهود الممكنة من سلاح وعتاد وجنود وإعداد للحرب، ولكن الأهم كان إقناع العدو بأننا غير مستعدين تمامًا للحرب في تلك المرحلة، وإعداد كل ما يلزم في سرية تامة، ودون أن يدرك العدو هذا، في نفس

الوقت الذي تدرك فيه القيادة أن عيونَ العدو وآذانه لا تهدأ ولا تنام وأجهزته تقوم بتحليل كل ما يمكنها التوصل إليه من معلومات واستخلاص جواب واحدٍ منها.. هل مصر تسعى للحرب أم لا!.. ومن أجل هذا اجتمع مجلس الدفاع الوطني المصري الذي يضمُّ رئيس الجمهورية، ووزير الحربية (الدفاع حاليًا)، ومدير المخابرات العامة، ومدير المخابرات الحربية، ووزير الداخلية وغيرهم.. وتم وضع خطة استراتيجية كبرى لخداع العدو، وإقناعه بأن مصر ليست لديها أي نية لخوض حرب استعادة الأرض في الوقت الحالي.. وكلمة استراتيجية هذه تعني الشمولية، أي أن الخطة تشمل كلَّ المحاور، وتشارك فيها معظم أجهزة الدولة، سواء عن عِلمٍ أو حتى دون عِلمٍ؛ حفاظًا على السِّريَّة بقدر الإمكان.. فعندما وضعَ أحدُ المهندسين العسكريين فكرة استخدام مضخات المياه لإسقاط الساتر الترابي أمام خط بارليف، تم استخدام وزارة الزراعة لاستيراد مضخات مياه قوية، باعتبار أنها مضخات للري، وفي نفس الوقت تم الإعلان عن شَغْلِ وظائف مدنية في المخابرات العامة، وكان من الطبيعي أن تسعى بعض عيون العدو لشغل تلك الوظائف، ولهذا كان من يستقبل المتقدمين يضع خلفَهُ لوحةً كبيرةً تدعو للسِلم لا الحرب؛ مما ترك انطباعًا بأن هذه هي السياسة المتبعة في تلك المرحلة.. أما الصور الصحفية فكان هناك إشراف كبير عليها، وخاصة تلك الصور التي تضم رئيس الجمهورية، مع وزير الحربية أو أي من قادة القوات المسلحة، حيث كانت تلك الصور تلتقط عدة مرات، ويقوم فريقٌ خاصٌّ من المتخصصين النفسيين بفحصها حتى يبدو فيها الاسترخاء على القادة والرئيس، وليس التحفُّز شأن من لا يفكِّر أبدًا في خوض حرب قريبة.. ولكن بقيت مشكلتان رئيسيَّتان: إخلاء المستشفيات، وإعداد مخزون سلعي. فمن أهم الاستعدادات للحروب أن تكون المستشفيات خالية لاستقبال الجرحى والمصابين عندما تندلع الحرب، والمخزون السلعي لاحتمال حدوث حصار بحري كجزء من الحرب، وبخاصة القمح باعتباره سلعة استراتيجية.. وهنا برزت أروع خدعة عسكرية عرفها التاريخ في عصوره القديمة والحديثة؛ لأنها وضعت أبجديات جديدة لفن الخداع العسكري صارت درسًا لكل أجهزة الاستخبارات العالمية حتى لحظة كتابة هذه السطور، يحمل في المراجع العالمية اسم (السرية العلنية)؛ فلأن العدو له عيون وآذان يمكنها رصد أي محاولة غير طبيعية لتخزين السلع الاستراتيجية أو إخلاء المستشفيات باعتبارها استعدادات معروفة ومؤكَّدة للاستعداد لخوض حرب، قرَّر المخططون أنه ما دام إخفاء الأمرين شِبه مستحيل، فعليهم عدم إخفائه، بل إعلانه على نحوٍ سَافرٍ واضحٍ؛ بحيث تنتفي عنه سمة السِّريَّة تمامًا.. وقد كان.. وفي تلك الفترة من بدايات عام ١٩٧٣م، تداولت الصحف قضيتين: "فضيحة انتشار ميكروب التيتانوس في معظم مستشفيات مصر، والمطالبة بعزل وزير الصحة"، و"فضيحة فساد القمح في صوامعه".. ولقد نشرت الصحف الإسرائيلية أمرَ الفضيحتين وسخرت منَّا، في

نفس الوقت الذي راحت فيه مصر تخلي مستشفياتها؛ لتطهيرها وتذيع علنًا عمليات إعدام القمح الفاسد واستوردت مصر كميات قَمحٍ بديلة.. ولم يدرك العدو أبدًا أنه لم يكن هناك وجود لأي ميكروبٍ في مستشفيات مصر، وأن الذي تمَّ حرقه علنًا كان أطنانًا من قَشّ الأرز، والقمح تم نقله سرًا إلى صوامع خفية.. لم يدرك العدو هذا إلا عندما اندلعت الحرب بالفعل.. أضِفْ إلى هذا الإعلان عن فتح باب عُمرة رمضان للضباط وضباط الصف، في واحدة من أشهر الصحف المصرية، والحديث عن زيارة الأميرة مارجريت لمصر، وغيرها من أبجديات خطة الخداع الاستراتيجي التي انضمت إلى قائمة الخداع الحربي عبر التاريخ، والتي أثبتت بالفعل لا القول أن الحرب دومًا.. خدعة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

(٩)

قطاع خاص

المعلومات.. أخطر وأقوى سلاح يملكه كل طرف من أيِّ طرفين متحاربين أو حتى مختلفين في أي مرحلة من الزمن، وأي حقبة من حقب التاريخ، وهذه حقيقة يدركها كلُّ جهاز مخابرات في العالم، وحتى معظم الناس مع اختلاف ثقافاتهم ومعارفهم.. ولهذا فمع بعض الضربات التي وجهها تنظيم داعش لأجهزة حسَّاسة في عدد من الدول، تواترت الأحاديث عن حتمية وجود أجهزة مخابرات خلف التنظيم تمده بالمعلومات اللازمة للقيام بتلك الضربات بتلك الدقة الشديدة، ولقد بدا هذا منطقيًّا وحتميًّا في معظم الأذهان، سواء أأفصحت عنه الألسن أو بقي مجرَّد مفهوم يقيني في أعماق العقول.. وهناك بالطبع دلائل عديدة تشير إلى حتمية وجود جهاز مخابرات أو أكثر، يساعد التنظيم على التخطيط وتوجيه الضربات، خاصة وأن مستوى التخطيط يتجاوز قُدرات مقاتلي التنظيم الذين يعتمدون دومًا على القوة والوحشية دون العقل والمنطق والحكمة.. ولكنَّ هناك احتمالًا آخر قد لا يخطر على بال الكثيرين ربما لأنه ليس مألوفًا أو معتادًا؛ فالتنظيم - في مرحلة ما – استطاع بسيطرته على حقول نفط، الحصول على موارد مالية ضخمة تؤهله لشراء ما يريد من معلومات من أجهزة مخابرات خاصة غير رسمية.. وهنا نطرح نحن السؤال: أمِنَ الممكن أن تكون هناك أجهزة مخابرات قِطاع خاص؟!.. لكي نجيب هذا السؤال لا بُدَّ وأن نفهم أوَّلًا طبيعة عمل أجهزة المخابرات.. فالمخابرات مؤسسات ضخمة لجمع المعلومات وتحليلها وتقديمها إلى صاحب القرار لاستصدار القرارات المناسبة سياسيًّا وعسكريًّا، مع معرفة كافية بقدرات وإمكانات الطرف الآخر.. والمخابرات، أي جهاز مخابرات ينقسم إلى قسمين.. قسم يُطلَق عليه اسم المخابرات الإيجابية وهو القسم المسؤول عن جَمع المعلومات وربطها ببعضها البعض وتحليلها واستخلاص الحقائق منها، وقِسم ثانٍ يُطلَق عليه اسم المخابرات السلبية وهو الذي يسعى لمنع العدو أو الخِصْم من الحصول على أي معلومات تخص الدولة وتتعارض مع أمنها القومي.. وجَمعُ المعلومات عمليةٌ ليست سهلة، فهي يمكن أن تتم عبر جواسيس وتحايلات وعمليات معقّدة متشابكة، ويمكن أيضًا أن تتم على نحوٍ عَلَنيٍّ بحت مثل استطلاعات الرأي، وتحليل الأسواق لاستخلاص المعلومات التجارية، والمعلومات الاقتصادية والاجتماعية، وحتى جمع أخبار الصحف وترتيبها واستخلاص المعلومات منها، ولكنَّ الجزء الذي يصنع أجهزة المخابرات ليس هو جمع المعلومات، ولكن القدرة على تحليلها وتصنيفها وترتيبها والوصول منها إلى نتائج حاسمة وهو الأمر الذي يحتاج إلى خبراء مدرَّبين لهم باع طويل في هذا المضمار وثقافة سياسية وعسكرية كبيرة..

وهذا يتوافر بالطبع في رجال المخابرات المحترفين في أجهزة الاستخبارات الرسمية، ولكن حتى هؤلاء لا يبقون في أعمالهم الرسمية للأبد؛ ففي بلد كبير كان يمتلك أحد أقوى أجهزة المخابرات وهو الاتحاد السوفيتي السابق، تم تسريح عدد كبير من رجال الـمخابرات(KGB)؛ فعقب تفكيك الاتحاد السوفيتي وجهاز المخابرات السوفيتية، كان يسيطر على كل نُظُم الأمن في البلاد من أقصاها إلى أقصاها، في حين أن المخابرات الروسية (SFK) تضم عددًا أقل بعد توزيع الاختصاصات على أجهزة أمنية أخرى.. ولقد خرج رجال المخابرات السوفيتية من الخدمة كجيش عاطل عن العمل، يضم أكبر وأقوى المحترفين في آسيا وأوروبا وهم يمتلكون خبرات وإمكانيات سنوات طويلة من المواجهات المباشرة في الحرب الباردة وغيرها.. وهؤلاء عرَضوا خدماتهم على أنظمة أخرى، وعلى كل من يستطيع دفع الثمن.. وهذا مجرَّد مثال؛ فالأمر نفسه تكرَّر في العراق وأفغانستان وإيران، وصار هناك جيش صغير من خبراء المخابرات المدربين على أعلى مستوى والذين يبحثون عن وسيلة لاستثمار كفاءاتهم وقدراتهم.. والواقع أنه عملٌ مُربِحٌ إلى حدٍّ مُدهشٍ خاصةً وقد تحوَّل هؤلاء إلى شركات أمن رسمية حاصلة على تراخيص بمزاولة عمل بوليسي، ولكنها تؤمِّن لزبائنها أعمالًا مخابراتية من خلف الستار.. وفي هذا العالم لا يهم نوع الزبون أو انتمائه ولا حتى كيفية استفادته من الخدمات المخابراتية؛ فالسفاح يتساوى مع شيخ المصلحين ما دام كلاهما مستعدًا لدفع الثمن الذي يبلغ ستة أصفار إلى اليمين على الأقل.. وتلك المخابرات القطاع خاص تقوم بنفس العمل الذي تقوم به أجهزة المخابرات الرسمية ولديها أقسام فنية وموزِّدون للتكنولوجيا المتقدِّمة، وربما لابتكارها أيضًا، وبعضها يسعى لتجنيد جواسيس من داخل الأنظمة الحكومية المختلفة إلى حدٍّ أنها قد تصل إلى الحصول على صور أقمارٍ صناعية وأسلحة محظور تداولها إلا للجيوش الرسمية، باعتبار أن تجار السلاح أيضًا لا يبالون بهوية الزبون، ولا بالكيفية التي سيستخدم بها ما يحصل عليه من أسلحة.. الهدف واحدٌ في النهاية.. جذب الملايين من جيب الزبون.. أيًّا كان.. الشيء الذي قد يُدهِشك هو أن بعض زبائن أجهزة الاستخبارات الخاصة هم أجهزة استخبارات رسمية ترغب في القيام بأعمال قذرة من أجل مصالح دِوَلِها ولا تريد أن تتورَّط على نحوٍ مباشر أو ينكشف أمرها في الوقت ذاته؛ لذا فهي تستخدم أجهزة مخابرات قطاع خاص؛ لتنفيذ الأعمال القذرة مقابل حفنة من الملايين، بحيث إذا ما انكشف أمرُها فهي مخابرات قطاع خاص وليست دولة تعادي دولة.. وكل الكيانات الصناعية الهائلة تتعامل على نحوٍ مُنتظمٍ مع أجهزة مخابرات قطاع خاص؛ لحماية استثماراتها وحفظ أسرارها وابتكاراتها الصناعية، أو حتى لسرقة الأسرار والابتكارات الصناعية من المنافسين.. وكذلك كل التنظيمات الإرهابية في العالم تستعين دومًا بشركات المخابرات الخاصة؛ لتؤمِّن لها المعلومات، ولتقوم بدور الوسيط في صفقات شراء وتهريب السلاح،

وشركات المخابرات الخاصة التي تعملقت إلى حدٍّ مخيف في السنوات العشر الأخيرة تحب هذا النوع من التعاملات باعتبار أن كل التنظيمات الإرهابية تدفع بسخاء، ببساطة لأنها تنهب كل ما تحصل عليه، ولو نفد رصيدها يمكنها أن تنهب غيره.. وعلى الرغم من أن مخابرات القطاع الخاص مهما كبرت وتعملقت لن يمكنها أن تنافس أجهزة المخابرات الرسمية ذات الإمكانيات الهائلة والخبرات الفنية اللا محدودة، إلا أنها ما زالت قادرة على التأثير في الكثير من مجريات الأمور بما تحصل عليه من معلوماتٍ سواء عبر التجنيد أو الرشوة المالية أو الجنسية، ولِما تمتلك من خبراء لديهم خبرة وقدرة على تصنيفها وتحليلها بحُكم الخبرة والتدريب؛ مما يجعل وجودها على الساحة خطرًا يضاف إلى خطورة التنظيمات الإرهابية نفسها.. الأكثر خطورة هو أنه من العسير جدًّا توجيه اتهاماتٍ رسمية لشركات الاستخبارات الخاصة حيث أن عملها الرسمي المصرَّح به هو تأمين المنشآت وحمايتها وحراسة الشخصيات الهامة وغيرها من مهام مكاتب التحريات الخاصة المرخَّصة، أما الأعمال الأخرى؛ فهي بحكم طبيعتها تتم على نحوٍ سري ودون تَرْك أي أدلة خلفها.. وعالم المخابرات الخاصة بحكم أرباحه الهائلة غير الرسمية، عالم أكثر شراسة ووحشية من أقوى التنظيمات الإجرامية وأعنفها؛ فالدماء ثمن هيِّن لديها للحفاظ على استثماراتها وحمايتها.. وهي في الوقت ذاته مستعدة للتعاون مع أخطر التنظيمات الإجرامية أو حتى الإرهابية، لو أن هذا سيزيد من أرباحها ويعلِّي من قوتها.. ولن يدهشك أن تضم تلك المخابرات الخاصة فريقًا من أبرع وأذكى العلماء الذين يعكفون ليل نهار لابتكار أحدث تكنولوجيا لمراقبة والتنصُّت، وأن توضع تحت تصرُّفهم معامل عملاقة تتكلف الملايين.. وهذا ليس مشهدًا من أحد أفلام جيمس بوند لشرير يسعى للسيطرة على العالم، ولكنه حقيقة صارت جزءًا من عالمنا المعاصر، حتى إن بعض الساسة يضطرون أحيانًا إلى التعامُل مع مخابرات القطاع الخاص، إما لربح معاركهم، أو خشية أن يسبقهم منافسوهم إليها.. الحرب المعلوماتية إذًا اتسعت دائرتها وتشعَّبت دروبها على نحوٍ لم تبلغ مثله منذ بدء الخليقة.. وهكذا صار على الدول وأجهزة المخابرات الرسمية ليس أن تواجه الأجهزة العدوة والمنافسة فحسب، بل عليها إلى جانب هذا أن تواجه أجهزة أخرى ومخابرات أكثر عنفًا وشراسة.. مخابرات قطاع خاص.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(١٠)

بيولوجيا

على نحوٍ لم تتخيَّله حتى أكثر روايات الخيال العلمي تشاؤمًا، اجتاح العالم كله ولأوَّل مرة في التاريخ، فيروس شديد العدوى، شديد الخطورة، واسع الانتشار.. صحيح أن العالم قد شهد (تاريخيًّا) هجمات أوبئة شرسة من قَبل مثل الطاعون الأسود بين عامي (١٣٤٨ – ١٣٤٩م) والذي حصد عشرين مليونًا، والكوليرا في عام ١٨٢٠م، والإنفلونزا الإسبانية عام ١٩١٨م، وكانت الأعداد في كل تلك كبيرة؛ لأنه في تلك الأزمنة -وهذا أمر طبيعي- إما لأن الفيروسات لم تكن معروفة بعد، أو لأنها كانت حديثة الكشف، حتى إن "ويندي باركلي" من جامعة "إمبريال كولاج" في لندن تقول: "حتى بعد كشف الفيروسات لم يدرك معظم الأطباء حينها أنها المسؤولة عن كل تلك الأمراض، ولقد احتاجوا إلى وقت طويل قبل كشف عقاقير مضادة للفيروسات، وتساعد على كبح تفشي المرض وتسريع التعافي منه.. وفي عام ١٩٧٦م، انتشر في الكونغو فيروس "الإيدز" الذي انتشر منها إلى مختلف أنحاء العالم بسبب سهولة المواصلات وسرعة انتقال البشر من مكان إلى آخر ونقص وسائل الكشف والتشخيص.. وحتى مع ظهور فيروس الإيدز، بدأ أصحاب نظرية المؤامرة في تداول فكرة أن ذلك الفيروس الذي يوجد في أحد أنواع القرود على نحوٍ طبيعيٍّ دون أن يسبب لها أيَّ أعراض هو فيروس معمَلي مُخلَّق.. وهو جزءٌ من الحرب البيولوجية.. الأمرُ نفسه تكرَّر مع كوفيد ١٩ أو فيروس كورونا الذي انتشر في العالم كله.. وكالمعتاد خرج علينا كهنة نظرية المؤامرة في إصرار، مؤكدين (دون أي معلومات كالمعتاد) أن هذا الفيروس أيضًا مخلَّق معمليًّا كجزءٍ من حرب بيولوجية شرسة تستهدف ضرب الاقتصاد العالمي، أو الأكثر تطرفًا لتقليل عدد سكان الأرض، وانتشرت على صفحات التواصل الاجتماعي وشبكة الإنترنت قصصًا وروايات ألَّفها بعض السيناريستات الملفقين والفاشلين، تروي تلك الروايات بالتفاصيل المؤلَّفة وبثقة عجيبة وكأنهم عاصروها بأنفسهم في مسارح الأحداث!!!.. ولكن لو أننا سايرناهم واتفقنا معهم على أنها مؤامرة عالمية سيبقى السؤال الأهم: مؤامرة من مَن وضد مَن؟!.. مراجعة الأرقام والبيانات العالمية تُشير إلى أنه خطرٌ يهدِّد كلَّ سكان العالم بلا استثناء، فمَن المستفيد ما دام كل علماء وأطباء العالم على الرغم من اختلاف جنسياتهم وتعارض انتماءاتهم، اتفقوا على خطورة الفيروس وقدرته المدهشة المخيفة على التوغُّل والعدوى والانتشار؟!.. أهي مؤامرة اتفق فيها كل علماء وأطباء وسياسيّ أنظمة العالم كله؟!.. ولو افترضنا أن هذا الاحتمال (شبه المستحيل) قائم فلمَنْ توجَّه هذه المؤامرة بالضبط؟!.. أهي مؤامرة تآزر فيها كوكب الأرض كلُّه ضدَّ سكان

كوكب آخر، أم أنها مؤامرة من كوكب آخر على بشرية كوكب الأرض بلا استثناء؟!.. ولأن السؤال نفسه دخل في دائرة الخيال العلمي، فالأفضل أن نعود عدة خطوات إلى الخلف، ونتساءل عن طبيعة ومفهوم الحرب البيولوجية في العموم.. فالحرب البيولوجية أو (Biological Warfare) هي الاستخدام المتعمَّد لموادٍ سامَّة أو جرثومات بعينها أو غيرها من الكائنات الحية الدقيقة وسمومها لنشر الأمراض أو الأوبئة بين البشر والحيوانات أو حتى النباتات أو سبل مقاومة هذه الأوبئة ومسبباتها.. وقد يُطلِق البعض على هذا النوع من الحروب اسم "الحرب البكتيرية" أو "الجرثومية"، ولكن مصطلح الحرب البيولوجية أدق وأشمل.. فتاريخ الحرب البيولوجية يعود إلى عصور تسبق كشف الميكروبات والجراثيم بكثير؛ إذ أنه في الحروب القديمة، لجأ بعض المحاربين إلى تسميم مياه الأنهار والآبار والنبيذ والمأكولات، أو إلقاء جثث ضحايا الأوبئة في معسكرات الأعداء.. ولقد استمر استخدام تلك الوسائل حتى بدايات القرن العشرين عندما استخدمها البريطانيون والأمريكيون في جنوب شرق آسيا لتدمير المحاصيل والغابات التي كان يختبئ وسطها الأعداء.. ولكن الحرب العالمية الأولى (٢٨ يوليو ١٩١٤م – ١١ نوفمبر ١٩١٨م) شهدت طفرة كبيرة في الحرب البيولوجية، عندما تم تطوير غازات سامة من مصادر بيولوجية طبيعية يمكنها الانتشار بين صفوف الأعداء، وإصابتهم بالتهاب جلدي شديد، واحتقان في كل الأغشية المخاطية في الأنف والفم وحول العين، ويدمِّر الأعضاء الحيوية مما ينتهي بالوفاة.. وهنا تم ابتكار الأقنعة الواقية من الغازات السامة، ولكن هذا لم يمنع كل الآثار الجانبية الأخرى من التهاب وصداع وآلام.. في تلك الحرب تم استخدام الحرب البيولوجية والكيماوية معًا لتدمير الجيوش العدوة في أقل وقتٍ ممكنٍ.. وعلى الرغم من أن الألمان هم من ابتكروا الغازات السامة وطوَّروها واستخدموها على نحوٍ وَحشيٍّ ضد العسكريين والمدنيين على حدٍّ سواء، إلا أن الحرب انتهت بهزيمتهم وسقوط إمبراطوريتهم، وانهيار حليفتهم الإمبراطورية العثمانية وتلاشِي نفوذها في الشرق الأوسط.. ومع توقيع اتفاقية فرساي في (٢٨ يونيو ١٩١٩م)، أصبحت ألمانيا المهزومة مسؤولة عن تعويض الأطراف المتحاربة، مما أدخل ألمانيا في أزمة اقتصادية طاحنة جعلت نسبة البطالة فيها تبلغ ما يقرب من الثمانين في المائة.. ثم جاء هتلر إلى الحكم، وصار مستشارًا لألمانيا في (٣٠ يناير ١٩٣٣م) وقرَّر إعادة مجد الإمبراطورية الألمانية، واستعادة كل ما سُلِبَ منها عقب هزيمتها في الحرب العالمية الأولى، ومن هذا المنطلق بدأ يُعِدّ جيشه وأسلحته سرًا، ثم بدأ حملة عسكرية لاستعادة الأراضي الألمانية التي استولت عليها دول الجوار بالقوة في الحرب الأولى، وكان من الطبيعي أن يقلق العالم كله، وأن تشتعل الحرب العالمية الثانية (١ سبتمبر ١٩٣٩ – ٢ سبتمبر ١٩٤٥م).. وقد نقل لنا تاريخ الحرب العالمية الثانية انتصارًا ألمانيًّا نازيًّا قويًّا باستخدام الحرب البيولوجية.. ففي

الحرب العالمية الأولى وعقبها، كان سلاح الفرسان الفرنسي مصدرَ كلّ الفخر والاعتزاز لفرنسا كلها ورمزًا للبطولة والنصر، وكان هتلر يكره فرنسا بالذات، ويُدرك أن تدمير رموزها الخاصة كفيلٌ بضرب الروح المعنوية للفرنسيين، وجعلهم أقرب إلى الهزيمة منهم إلى النصر.. سلاح تلك الحرب البيولوجية كان مجرَّد إبرة ملوَّثة بميكروب الجمرة الخبيثة، حملها أحد جواسيس هتلر ليغرسها في فخذ أحد جياد سلاح الفرسان.. وفي خلال شهرٍ واحدٍ، انتشرت العدوى بين سلاح الفرسان الفرنسي كله، وفي مشهد درامي مزَّق نياط قلب كل فرنسي، انهار سلاح الفرسان، وقضت كل خيوله نحبها، وسقطَ رمزٌ من رموز القوة والنصر في فرنسا وما هي إلا بضعة أشهر حتى اجتاحت الجيوش النازية فرنسا، التي استسلمت ووقَّعَت وثيقة الاستسلام في نفس عربة القطار التي شهدت توقيع وثيقة استسلام ألمانيا في الحرب العالمية الأولى.. ولقد أدركت الاستخبارات البريطانية ما حدث فتمَّ تكوين فرع خاص بها مزوَّد بأمهر علماء إنجلترا للقيام بالدورين معًا: ابتكار وسائل حرب بيولوجية وكيماوية جديدة، وإيجاد وسيلة لمقاومة أي حرب بيولوجية نازية محتملة. أما في العصر الحديث ومع التطوُّر العلمي والطبي الكبير والمتسارع بسرعة الصاروخ، ومع سهولة وسرعة التنقل بين القارات الخمس، لم تعد الحرب سلاحًا يمكن استخدامه على نحوٍ آمنٍ بالنسبة لمستخدمه، وصار التركيز أكثر على الحرب الإليكترونية، وربما الكيماوية؛ خاصة وأن زمن المواجهات التصادمية المباشرة يوشك على كتابة كلمة النهاية مع ابتكار وتطوير حروب الجيل الرابع والحروب بالوكالة عبر تنظيمات إرهابية يمكن أن تنتشر في كل بقعة من بقاع العالم.. الاحتمال الوحيد القائم هو أن تسعى جهةٌ ما لابتكار أو تطوير فيروس بعينه لديه مَيلٌ تجاه جينات بعينها، وهناك بعض الأبحاث البيولوجية التي تعتمد على ابتكار فيروسات تسعى خلف أجناس نقية السلالات أو منغلقة التزاوج، وهذا أمرٌ لم يتم استخدامه عمليًّا حتى الآن وِفقًا للمعروف، وربما تتعارض تلك الأبحاث مع الطبيعة العجيبة للكائنات الفيروسية القادرة على مقاومة معظم الوسائل المؤثرة في أنواع البكتيريا والميكروبات الأخرى، إضافة إلى قدرة الفيروسات المدهشة على التحوُّر والتغيُّر؛ لمقاومة متغيرات البيئة. ومن السهل ملاحظة هذا بمتابعة فصائل الإنفلونزا المختلفة التي تتغيَّر وتتطوَّر كلَّ عامٍ أو عامين من إنفلونزا عادية، إلى أسيوية، إلى إسبانية، إلى إنفلونزا طيورٍ وخنازير.. ومشكلة التعامل مع الفيروسات هو أنها أشبه بالكائن الميت الحي؛ فخارج الخلايا الحية تبدو أشبه بقِطَعٍ كريستالية مجهرية خالية من أي علامة من علامات الحياة، ولكن عندما تخترق الخلايا الحية فهي تتحوَّل إلى كائن طفيلي شرس يعمل بكل هِمَّة ونشاط وبلا رحمة لتجنيد الخلايا المصابة به، لإعادة إنتاج عشرات النسخ منه؛ بحيث تتوجَّه مواردها كلها لخدمته حتى تنهار وتموت، فِي حين يحِيا هو وينتشر.. وفي أحيان كثيرة عندما تواجه الفيروسات

عقارًا قويًّا أو نشاطًا جيدًا للجهاز المناعي الحيوي؛ فإنها تعود إلى حالة شبه الحياة، وتظل كامنة في الجسد إلى أن تنخفض مناعته أو يُصاب جهازه المناعي بالضعف لعوامل طبية أو علاجية، فتعود لتنطلق وتدب فيها الحياة وتستعيد كامل نشاطها. وهذا ما نراه بوضوح في مرض جلدي مثل "الهربس" الذي يظهر ويختفي على فترات متباعدة في جسد المصاب به.. السؤال الأساسي هو: هل يمكن أن يكون تحوُّر وتطوُّر بعض أنواع الفيروسات هو عملٌ تخليقي مَعمَلي متعمَّد، أم أنه يحدث على نحوٍ طبيعي مع التغيُّرات البيئية أو التلوُّث البيئي؟!.. وهل يمكن أن تلجأ دولة ما إلى تخليق فيروس شرس لأغراض اقتصادية أو سياسية؟!.. الواقع أنه لا أحدَ يمكنه إجابة أو نفي السؤال على نحوٍ قاطعٍ؛ إذ أن هذا سيخضع حتمًا إلى عدة عوامل أساسية أهمها: هل ستمتلك تلك الدولة عقارًا شافيًا أو مصلًا مانعًا ضد ذلك الفيروس التخليقي المحتمل، أم أنه من الممكن أن يتسبَّب خطأ مَعمليٌّ أو أمنيٌّ في انتشاره دون قصدٍ، ودون استعداداتٍ كافية؟!.. هذا السؤال أيضًا لا يمكن الجزم بإجابته سواء بالنفي أو الإيجاب، وكذلك السؤال الأهم: هل انتهت ولم تعد مستخدمة أم ما زالت مستمرة، تلك الحرب الرهيبة المخيفة.. حرب البيولوجية؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(١١)

كلام في سرك..!!

«الكلمة تعني وطن..».. «كلمة تشعل حربًا..».. « فكِّر قبل أن تتكلَّم..».. عبارات مثلها أو تشبهها خرجت إلينا في حملة دعائية كبيرة تعيد إلى ذاكرتنا تلك الأيام العصيبة في الفترة ما بين نكسة يونيو ١٩٦٧م، وانتصار أكتوبر ١٩٧٣م؛ حيث كنا نطالع اللافتات الإرشادية المشابهة في كل المصالح الحكومية، وكل المنشآت الحيوية وحتي في الصحف والطرقات.. هذا لأن عالم الأسرار عالم شديد التعقيد وشديد البساطة في الوقت ذاته، فأجهزة الاستخبارات الكبرى لا تحصل على كل ما لديها من معلومات عبر جواسيس محترفين ومغامرات تُشبه أفلام (جيمس بوند)، بل إن الجانب الأعظم من المعلومات تحصل عليه من مصادر علنية متاحة للجميع مثل الصحف والمجلات والقرارات الحكومية المعلنة، وأحيانًا أسعار السلع الأساسية مثل الخبز والبنزين، حتى إن دولة كبرى مثل (الصين) لا تنشر تقاريرها الاقتصادية أبدًا، وتعتبرها سرًّا قوميًّا لا بُدَّ من الحفاظ عليه بأي ثمنٍ.. وهناك جزء من المعلومات بالطبع يحتاج إلى زرع وتجنيد الجواسيس للوصول إلى مكامن الأسرار وخزائن المعلومات، إلا أن الجزء الأخطر هو الذي يمكن الحصول عليه من خلال رصد أحاديث عادية أو الدفع إلى ترويج شائعة بعينها في وقت محدود بدقة بالغة.. والأمثلة عن استقاء المعلومات العلنية والاستفادة منها مدهشة، لعلَّ أشهرها واقعة الصحفي السويسري (برتولد جاكوب) والذي نشرَ كتابًا في أواخر الثلاثينيات من القرن العشرين في الوقت الذي كانت فيه (ألمانيا) النازية تعد جيشها وتعمل على تقويته في سرية بالغة؛ ليصف كتابه -وبكل الدقة- كل تفاصيل الجيش النازي بألويته وفصائله وأسماء قادة الألوية والفصائل ومواقع تمركز كل كتيبة.. وهكذا.. ولما كانت المعلومات بالغة الدقة إلى حدٍّ مذهلٍ؛، فقد أصيب (هتلر) بالجنون واستدعى إليه قائد (الجستابو) (هملر)، وطلب منه وبكل الغضب والصرامة، البحث عن مصدر المعلومات، وكيفية حصول (جاكوب) عليها.. ولما كان التحقيق مع قادة الجيش جميعهم أمرًا عسيرًا؛ فقد قام (هملر) بما بدا أنه أقصر طريق للوصول إلى الهدف، فأرسل فريقًا من رجاله إلى (سويسرا) لاختطاف (جاكوب) وإحضاره إلى (برلين) وهناك في مقر (الجستابو) الذي كان يعرف باسم (بيت الثعالب) انهار (جاكوب) رعبًا وروى لهم -وبكل التفاصيل-، كيف حصل على معلوماته الدقيقة.. وكانت المفاجأة أن (جاكوب) ليس لديه أي مصدر لكل هذه المعلومات، سوى صفحات الوفيات في الصحف الألمانية، والتي ظل يطالعها طوال عامٍ كاملٍ؛ ليجد بينها نعيًا يقول: « العقيد فلان قائد الفرقة رقم كذا ينعي زوجةً اللواءِ علان قائد الفرقة كذا.. وهكذا».. إعلانات وفيات من هذا

القبيل راح يجمعها ويصنفها، ومنها حصل على كل تفاصيل الجيش النازي التي لم تحصل عليها دول كبرى في ذلك الحين.. تلك الواقعة نبهت النازيين والعالم كله من بعدهم، إلى ضرورة عدم ذِكر أي تفاصيل عن رجال الجيش أثناء نشر نعيهم أو نعي أحدٍ ممن ينتمون إليهم، بعد أن أدرك الكل مدى خطورة هذا، وكم المعلومات المدهش الذي يمكن الخروج به من مجموعة من المعلومات الصغيرة التي تبدو وكأنه لا قيمة لها.. فالمعلومات في تعريف رجال المخابرات أشبه بلعبة بازل كبيرة مكوَّنة من عددٍ من القطع الصغيرة إذا ما قمت برصِّها إلى جوار بعضها البعض بالترتيب الصحيح فإنها ستكوِّن في النهاية صورةً كبيرة واضحة تحوي الكثير من التفاصيل والمعلومات.. قبل حرب ١٩٦٧م مثلًا كانت خطب الزعيم (جمال عبد الناصر) نارية ملتهبة وكان، واثقًا من قوة جيشه وتسليحه، حتى إنه طلب سحب القوات الدولية التي تمركزت في عدة مناطق في (سيناء) عقب انسحاب (إسرائيل) منها عام ١٩٥٦م، وعلى الرغم من أنه قد طلبَ سحب القوات الدولية من (شرم الشيخ) وحدها، إلا أن القوات الدولية رفضت الانسحاب المحدود، وأصرَّت على الانسحاب الكامل من (سيناء)، في نفس الوقت الذي تصاعدت فيه حدة خطابات (ناصر) إلى الحد الذي بدأت فيه (إسرائيل) تقلق من احتمال استعداده لشن حرب ضدها بالفعل.. ولما كان شن الحروب أو حتى الاستعداد لمواجهتها يعني تكلفة مالية هائلة لم تكن (إسرائيل) مستعدة لشن حرب على (مصر)، إلا عندما تتيقَّن من أن (مصر) جادة بالفعل في الاتجاه نحو الحرب، ومن هنا نشط جواسيسها في قلب المجتمع المصري؛ بحثًا عن أي معلومات تؤيِّد أو تنفي هذا.. والمدهش أن المعلومة التي حسمت الأمر لم تكن معلومة عسكرية خطيرة أو معلومة سياسية من مطبخ صنع القرار، بل أتت من عامل بسيط في شركة من شركات إنتاج الأغذية المحفوظة على مقهى صغير في حي شعبي.. العامل كان يتناول كوبًا من الشاي المصري وهو يجلس مع أحد أصدقائه، وأخبره أنهم قد ضاعفوا الورديات في المصنع لإنتاج ضعف الكمية من علب الخضار المحفوظ... والتقطت أذن أحد جواسيس (إسرائيل) المعلومة البسيطة، ونقلها وسط معلومات أخرى إلى (تل أبيب)، وهناك اعتبرها محللو المعلومات قطعة من البازل المعلوماتي أضافوها إلى معلومة أخرى تقول: "إنه مع الاستعداد للحروب يتم مضاعفة تعيين الجندي العادي فيحصل على علبتين من الخضار المحفوظ يوميًّا بدلًا من علبة واحدة".. وهكذا اكتملت بالنسبة لهم الصورة وبات من الواضح أن (مصر) جادة في الاستعداد للحرب وقررَّت القيادة السياسية الإسرائيلية بناءً على تلك المعلومة شن حرب خاطفة؛ لمنع (مصر) من توجيه ضربة قاصمة لها.. المعلومات إذًا ليس فيها كبير أو صغير... المهم أن تأتي المعلومة لتكمل جزءًا من البازل المعلوماتي، وتضع صورة واضحة في النهاية.. والشائعات لا تختلف كثيرًا في هذا المضمار، باعتبار أنها سلاح قوي وفعَّال؛ لِهدم الجبهة الداخلية لأي دولة،

ولقد استخدمها (جوبلز) وزير (البروباجاندا) أو الدعاية في حكومة (هتلر)؛ لتحطيم الجبهة الداخلية في (تشيكوسلوفاكيا) حتى يمكنه احتلالها بأقل قدرٍ ممكنٍ من الخسائر، مستغلًا وجود أقلية ألمانية بدأت الشائعات عندها؛ لإقناع أبنائها بأنه هناك محاولة من الحكومة التشيكية لطَمْس هويتهم ومزجهم في الأكثرية التيشكية؛ مما أدى إلى حدوث مصادمات بين الأقلية ورجال الشرطة سرعان ما تطوَّرت مع تناقُل سيل الشائعات الذي واصل (جوبلز) تلقيم الأقلية الألمانية به وتحوَّلت إلى فوضى أمنية عارمة راحت تنتشر كالعدوى وسط الشعب التشيكي كله، وبدأ جواسيس (ألمانيا) اتصالاتهم مع قادة الرافضين، ونصحوهم بعدم قبول أي عروض مهما بدت مغرية من الحكومة التشيكية التي وصل بها الأمر إلى عرض مَنْحُهم الحكم الذاتي، ولكنهم واصلوا رفض كل شيء وأي شيء، حتى تدخَّل (هتلر) عسكريًّا بعد أن أيقن من تفكُّك كيان الدولة؛ بحجة حماية الأقليات الألمانية، واحتل (تشيكوسلوفاكيا) بالفعل بخسائر تكاد لا تُذكَر.. وفي (إنجلترا) وبعد الدروس المستفادة، بدأت حملة لتوعية الناس بضرورة الحفاظ على الأسرار، وعدم ترديد الشائعات قبل التيقن من كل ما تحويه، وكانت تلك الحملة في قلب الحرب العالمية الثانية تعتمد على النصائح المباشرة هبر المذياع ولافتات التوعية في الطرقات، وداخل كل المنشآت والمدارس والمعاهد وحتى المستشفيات.. في البداية رأى بعض المثقفين أنها وسيلة ساذجة لا يمكنها أن تؤدي إلى شيء، إلا أن كل الدراسات خلال وبعد الحرب، أثبتت أن تلك الأساليب التي نصفها بالنمطية تأتي بنتائج مدهشة مع قطاع عريض للغاية من أي شعبٍ، إذ أنها تعتمد على نظرية الإلحاح والتذكير والتي تؤدي حتمًا عند نسبة كبيرة من الناس إلى إعادة التفكير في كثيرٍ من الأمور التي كانوا يقومون بها على نحوٍ تلقائيٍّ دون الانتباه إلى عواقبها أو إلى تعريفهم بخطورة الأمور البسيطة التي لم تبدُ لهم بهذه الأهمية وهم يمارسونها على نحوٍ تلقائيٍّ، كما أشارات تلك الدراسات إلى أن التفكير على مستوى المثقفين لا يحسم الأمور على نحوٍ مثاليٍّ؛ باعتبار أنهم في أي دولة لا يمثلون أكثر من نسبة ٥٪ من مجموع سكانها، أما الغالبية العظمي فهي الأكثر تأثرًا بما يراه المثقفون أمورًا نمطية غير فعالة.. وقد يدهش البعض معرفة أنه حتى في أروقة كل أجهزة المخابرات في العالم تقريبًا، توجد لافتات إرشادية مماثلة تحذِّر العاملين طوال الوقت، وعلى نمط إلحاحي، بضرورة الحفاظ على أدق الأسرار، وعدم ترديد أي أقاويل دون الرجوع إلى مصادرها والتأكد من صحتها؛ لعلم أجهزة المخابرات بجدوى وأهمية هذه الأساليب المباشرة إلى جوار وسائل الدعاية الأخرى غير المباشرة، والتي تتطوَّر أيضًا يوميًّا، إلى حدّ القدرة على الوصول إلى العقل الباطن للشخص العادي وزرع فكرة بعينها فيه مثل الصور الخفية والعبارات ذات التأثير المعنوي وغيرها.. والحديث عن حرب المعلومات والشائعات يطول ويطول؛ لأنه حديث غزير المعلومات، كثير التفاصيل إلى

حدٍّ مُدهشٍ.. أو ربما مخيف.. ولكن وفي النهاية، كلام في سرك: هل ردَّدتَ شائعةً ماً اليوم؟!.. راجع ما فعلته منذ استيقظت دون انفعالٍ أو تشنج، وأراهنك أنك قد فعلت.. أليس كذلك؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(١٢)
طاقية الإخفاء

منذ حداثتنا، انبهرنا واستمتعنا كثيرًا بعددٍ من الأفلام والروايات العربية والعالمية التي تدور حول نقطة واحدة..

الاختفاء..

فمنذ خبر الإنسان الدنيا وتعلَّم الخوف منها ومن أعدائه والوحوش وحتى الطبيعة نفسها، راوده حُلمٌ لم يفارقه أبدًا..

حلم القوة، والسطوة، والسيطرة..

حلم التفوُّق على الأعداء، والمخاوف..

كل الأعداء..

وكل المخاوف..

ولأن الخوف جزءٌ من تكوينه، والشك والحذر مكوِّنان أساسيَّان في انفعالاته؛ فقد تحوَّل هذا الحلم إلى رغبة دفينة في حماية كيانه ونفسه، وإخفاء جسده عن أعدائه من البشر والوحوش..

ومن هنا بدأ حلم الاختفاء..

وفي الميثولوجيا النرويجية القديمة، نجد أول ذِكر للاختفاء وربطه بالقوة المطلَقَة في أسطورة تتحدَّث عن قزم يحكم العالم السفلي ويثير الرعب والفزع في النفوس حتى يظهر الفارس الأسطوري البطل الذي يواجهه ويهاجمه ويدحره ثم يفوز منه بالغنائم وعلى رأسها رداء الإخفاء الذي يخفي لابسه عن الأنظار ويمنحه قوةً ما بعدها قوة..

ومع الأسطورة بدأ حُلم الإنسان برداء الإخفاء، أو قلادة الإخفاء، أو كما نعرفها ويعرفها البسطاء في مصرنا (طاقية الإخفاء)..

ولقرون عديدة، بعد الأسطورة النرويجية، ظلَّ حُلم الاختفاء مجرَّد خيالٍ يسرح فيه الناس أحيانًا، ويفكرون فيه بعض الوقت، حتى جاء كاتب الخيال العلمي والأديب والصحفي والروائي الإنجليزي (هربرت جورج ولز) ليطرح لهم روايته الرائعة (الرجل الخفي) عام ١٨٩٧م..

ففي رائعة (ولز) توصَّل أحد العلماء إلى عقارٍ خَاصٍّ يلغي انعكاس الضوء عن جسده، ومعدَّل انكساره داخله، مما يعني أنه سيصبح شفافًا تمامًا..

أو خفيًّا..

وانبهر الناس برواية (ولز)..

وعاد حُلم الاختفاء إلى العقول والقلوب والأذهان، خاصة وأن العالم كان يبدأ عصرًا صناعيًّا متقدِّمًا، لعبت فيه الكيمياء والكهرباء دورًا كبيرًا، وفجَّرتا عشرات الأفكار والأحلام والخيالات في الرءوس..

ومع مولد عالَم السينما، انتقل حلم الاختفاء إلى الشاشة الكبيرة، وراح يبهر الناس أكثر وأكثر وأكثر..

ولأن المقولة الشهيرة تقول: "إن طريق العِلم يبدأ بالخيال"، فقد تحوَّل الحُلم في عقول عددٍ من العلماء إلى كومة من الحسابات والمعادلات والأرقام والتجارب..

وهنا فقط استنكر العلماء فكرة (ولز) عن الإخفاء..

فلو أن بطل (ولز) قد نجح في جعل خلاياه بالغة الشفافية بالفعل فهذا يعني أن الضوء لن يسقط على شبكية العين، وإنما سيعبرها دون توقُّف؛ باعتبار أنها تشارك باقي خلايا الجسد شفافيتها المطلقة..

إذًا فبطل (ولز) الخفي لن يمتلك قوة رهيبة كما تقول الرواية، بل على العكس تمامًا؛ فهو سيصبح أعمى، عاجزًا، يحتاج إلى من يمسك يده ويرشده إلى طريقه..

وهنا راح العلم يبحث عن نظرية أخرى للإخفاء..

حتى خاضَ العالم الحرب العالمية الثانية..

تلك الحرب التي انطلقت كلُّ العقول خلالها تفكِّر وتعمل وتبتكر وتخترع من أجل التفوق، وطمعًا في النصر..

وعبر سنوات الحرب الرهيبة، تم اختراع الرادار والصواريخ وطائرات الهليكوبتر..

بل والقنبلة الذرية أيضًا..

كل هذا تم استخدامه وإعلانه والدخول معه في سباق التسلُّح..

فيما عدا اختراعًا واحدًا ظلَّ طي الكتمان ولم يتحدَّث عنه أحدٌ، لما يقرب من نصف القرن، بعد نهاية الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٥م)..

ففي عام١٩٤٣ م، في (فيلادلفيا)، قام فريق من علماء الفيزياء تحت إشراف الأسطول الأمريكي، بتجربة نادرة وفريدة، تم خلالها استخدام مجالات

كهرومغناطيسية فائقة عبر استكمال نظرية المجال الموحَّد التي تركها (ألبرت أينشتين) منقوصة؛ لإخفاء المدمِّرة (DE-173) عن الأنظار..

ونجحت التجربة..

نجحت نجاحًا باهرًا أمام أعيُن الجميع، إذ اختفت المدمِّرة تمامًا عن الأنظار، ولم تترك خلفها سوى سحابة رمادية باهتة على مستوى سطح الماء فقط..

اختفت المدمِّرة..

ونجحت التجربة..

ولكن المشروع فشل تمامًا..

فعلى الرغم من نجاح عملية الإخفاء، إلا أن المجالات الكهرومغناطيسية القوية أوقفت عملَ كلِّ آليات المدمِّرة، كما أصابت بحارتها بجنونٍ مؤقتٍ، وبأعراض شتى، واضطراب خلايا المخ..

باختصار؛ ثبت أن الإخفاء بوساطة المجالات الكهرومغناطيسية القوية غيرُ مُجدٍ على الإطلاق كسلاح حربي فعَّال..

ولأن النتائج الإجمالية كانت سيئة إلى الحد الذي اضطرت فيه البحرية الأمريكية إلى إدخال نصف بحارة المدمرة مصحات نفسية للعلاج، تم إدراج الأمر تحت بند السرية المطلقة، ولم يعلن عنه أبدًا إلا بعد مرور نصف قرن من الزمان، وِفقًا لقوانين الوثائق الأمريكي..

ولكنَّ أحد مميزات العلم هي أنه ليس حكرًا على أحد؛ لذا فقد توصَّل آخرون وآخرون إلى النظرية نفسها، وإلى النتائج نفسها، بحيث صار الإخفاء عبر المجالات الكهرومغناطيسية القوية أمرًا شائعًا معروفًا..

ولهذا جاء الساحر الشهير (دافيد كوبرفيلد) ليستغل هذه النظرية في إخفاء الطائرات والبوارج، وحتى تمثال الحرية الشهير..!

وانبهرنا نحن بما يفعله الساحر الشاب..

واندهشنا..

وربما اضطربنا أيضًا..

ومن المؤكَّد أن العديدين منَّا عادوا يشاهدون أفلام الرجل الخفي وطاقية الإخفاء وفتوة الغلابة، وغيرها.. والتساؤل القديم يعيد طرح نفسه في الأذهان..

هل يمكن أن يصبح الإخفاء حقيقة يومًا ما؟!..

والجواب هو أن العلم لا يعرف المستحيل..

ولا يتوقَّف أبدًا أمام العقبات..

لذا فقد واصل العلماء تجاربهم في محاولة للتوصُّل إلى سِرّ القوة..

قوة الاختفاء..

وعبر تلك المحاولات توصَّل العلماء إلى إنتاج طلاء خاص شديد السواد، يمتص كل الأشعة الساقطة عليه، ولا يعكس منها شيئًا..

ومن هنا جاءت فكرة الطائرة الشبح..

طائرة ذات أجنحة ماسية القطع قادرة على تشتيت موجات الرادار في نفس الوقت الذي تُطلى فيه بذلك الطلاء الخاص، مما يمنع أجهزة الرادار من رصدها تمامًا..

وهذه الفكرة تصلح لإخفاء الأجسام المعدنية والبعيدة..

ولكن ماذا عن الأجسام العادية؟!..

أحد علماء (اليابان) توصَّل عام ١٩٩٢ م إلى اختراع زِيٍّ خاص مزوَّد بعددٍ كبيرٍ من كاميرات الفيديو الصغيرة التي تنقل كلٌّ منها صورةً ما أمامها إلى الجزء العكسي تمامًا لاتجاهها في الزي..

بمعنى أصح: لقد اخترع زيًّا يصنع حالة من الاختفاء الزائف..

وقد يدهشكم هذا ويحيركم ويدفعكم للتكذيب والاستنكار أيضًا، ولكن رداء الإخفاء الذي بدأ به الأمر أسطوريًّا، تحوَّل إلى حقيقة علمية..

وهنا في (مصر)..

وبالتحديد في قسم الفيزياء التجريبية بكلية علوم (القاهرة)..

وباستخدام طلاء خاص أيضًا، ابتكره الأستاذ الدكتور (محمد علي أحمد)..

والطلاء هذه المرة ثابت ودائم، ويكفي أن يتم رشه على قطعة من القماش، حتى تخفي تمامًا كل ما يوضع فوقه أو أمامه..

وبدقة أكثر، لقد اخترعنا نحن رداء الإخفاء أو طاقية الإخفاء الأسطورية الشهيرة..

اخترعناها هنا..

في (مصر)..

وكما بدأ الأمر، انتهى..

بدأ برداء إخفاء في أسطورة نرويجية قديمة..

وانتهى برداء إخفاء في معمل تجارب مِصري حديث..

الحلم إذًا تحوَّل إلى حقيقة..

حقيقة علمية ومعملية وواقعية وملموسة..

حقيقة قد تؤكِّدها كل المعادلات والنظريات والتجارب، ولكنها تظَلُّ دومًا وراء الإدراك البشري التقليدي..

فهكذا العلم ينطلق دومًا وراء الخيال..

أو وراء العقل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تم الكتاب بحمد الله وتوفيقه) ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنــــاة

الفهرس..

عن الكتاب..

إهداء..

(١)
الحرب الرقمية
(٢)
الحقيقة والسراب
(٣)
جاسوس النصف قرن
(٤)
حتى التقنية.. حروب
(٥)
باللون الأحمر
(٦)
ليس كل ما يؤذي العباد
من فعل زبانية الموساد
(٧)
ورقة وقلم.. وجاسوسية
(٨)
الحرب خدعة
(٩)
قطاع خاص
(١٠)
بيولوجيا
(١١)
كلام في سرك..!!
(١٢)
طاقية الإخفاء